الفقه والتصوف

وهي ثلاث رسائل

كتبها في حقيقة هذين الفنين وما طرأ عليهما

حضرة العالم الفاضل

﴿ السيد عبد الحميد افندي الزهراوي ﴾

نزيل دمشق الشام جواباً على كلام بعض اصدقاء له

طبع بمطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣١٩ هجرية و ١٩٠١ ميلادية

الفقه والتصوف

وهي ثلاث رسائل

كتبها في حقيقة هذين الفنين وما طرأ عليهما

حضرة العالم المفنن

السيد عبد الحميد افندي الزهراوي

نزيل دمشق الشام جواباً على كلام بعض اصدقاء له

طبعت بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٣١٩ هجرية و ١٩٠١ ميلادية

عما وسعته صدورهم من العلوم فتوسعوا بالتفصيلات القوليـة والاصطلاحات المذهبية حتى كتبوا الوفاً من الاوراق على الصلاة مثلا . ولئن سألتهـم ليقولن انها عماد الدين وان الاهتمام بتحرير علومها ضروري . قل ان القرآن المجيد الذي فرضها لم يجيء فيـه بشأنها اكثر من قوله : واقيموا الصـلوة واركعوا مع الراكعين واسجدوا لله . ولم يجئ فيـه بشأن الطهارة التي هي من احبابها اكثر من الامر بغسل الوجه واليدين والرجلين ومسح الرأس اذا اخرج الانسان فضلاته وبالتيمم اذا لم يجد الماء وبالتطهر من الجنابة وان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم الصلاة للواحد من اصحابه في ساعة واحدة لانها اعمال محدودة كالوقوف الى جهة معينة وقراءة كلمات سهلة وحني الظهر ووضع الجبهة على الارض اعمال يتعلمها الصبي في ساعة ويا عجبي للذين اختلفوا واستشهد كل منهم بالاقوال : ألم يروا انها حركات بدنية واستحضارات قلبية . شوهـدت من النبي صلى الله عليه وسلم يفعلها خمس مرات كل يوم في نحو عشرين عاماً ثم شاهدها من اصحابه من لم يشاهدها منـه وهلم جراً . ألم تكن في مشاهدة العمل يتكرر آلافاً من المرات غنية عن الاقوال ؟ ام أراد بهم ربك اختلافاً فلم يزد الناس بيانهم الا اغماضاً واعضالا . أنال من امثلة اختلافاتهم هذا المثال :

« في فتح القدير (١) ص (١٥٤) » « واول وقت المغرب اذا غربت الشمس وآخر وقتها ما لم يغب الشفق » وقال الشافعي

رحمه الله : مقدار ما يصلي فيه ثلاث ركعات لان جبريل عليه السلام امّ في اليومين في وقت واحد . ولنا قوله عليه السلام : اول وقت المغرب حين تغرب الشمس وآخر وقتها حين يغيب الشفق . وما رواه كان للتحرز عن الكراهة ثم الشفق هو البياض الذي في الافق بعد الحمرة عند أبي حنيفة رحمه الله وقالا هو الحمرة وهو رواية عن أبي حنيفة وهو قول الشافعي رحمه الله لقوله عليه السلام : الشفق الحمرة . ولابي حنيفة قوله عليه السلام : وآخر وقت المغرب اذا اسود الافق . وما رواه موقوف على ابن عمر رضي الله عنهما ذكره مالك رحمه الله في الموطأ وفيه اختلاف الصحابة اهـ

تراهم اختلفوا في تعيين الشفق ورووا عن أبي حنيفة روايتين متباينتين وانت خبير ان هذا التفريق بين البياض والحمرة دقيق جداً اذا كان الجو صافياً ولا يمكن البتة اذا كان داجناً . ثم ما ذا جوابهم اذا سألهم أهل ارض تحتجب فيها الغيوم الشمس اكثر من نصف السنة عن اول وقت المغرب الذي عينوه بغروبها وعن آخره الذي عينوه بذلك البياض وتلك الحمرة فيقولون يقدر الوقت تقديراً؟ فكيف يقدر الوقت وبماذا ؟ أبعدد الركعات كما قال الشافعي فكم معدل الركعات في النهار والليلة حتى نقدر اجزاءها بعدد الركعات ومن ذلك الذي يعمل هذا المعدل ؟؟

واليكم هذا أيضاً ــ يقولون في باب الصوم :

« لا عبرة باختلاف المطالع فيلزم اهل المشرق برؤية أهل المغرب وعليه الفتوى » انظر معي في هذا القول الذي اتفقوا عليه وأفتوا به الا اصحاب الشافعي فاسأل الذين يقرأونه فيعتبرونه ديناً: من ذلكم الذي يوصل خبر المغرب الى المشرق في أقل من ليلة حتى يلزمهم الصوم بيوم واحد؟ ثم كيف يصوم أهل المغرب مثلا برؤية اهل المشرق وبينهما اختلاف عظيم في الزمان فقد يكون ليل ناس نهار آخرين ؟

سامحني ايها الصديق بما تصديت له من حال اقوالهم في قسم العبادات فقد دعت الى هذه الاشارة ضرورة الكلام على كل ما سموه فقهاً وسامحني أيضاً أن اذكر شيئاً مما كتبوه في المناكحات التي عدوها في المعاملات تلك المناكحات التي يتعجب الانسان من الابواب التي فتحت فيها كحلف الانسان بانه يحرم فرج امرأته على فرجه اذا كان الامر كذا مما لا علاقة للزوجة به وكاءفتائهم وقضائهم بان هذا الفرج المحلوف عليه يحرم اذا حنث الحالف وان لم يكن ثمة ارادة الفراق واليكم من عباراتهم في هذا الباب شيئاً من اشياء

« لو قال لها : انت طالق ثلاثة انصاف تطليقتين فهي طالق ثلاثاً لان نصف التطليقتين تطليقة فاذا جمع بين ثلاثة انصاف تكون ثلاث تطليقات ضرورة ولو قال انت طالق ثلاثة انصاف تطليقة قيل يقع تطليقتان لانها طلقة ونصف فيتكامل وقيل يقع ثلاث تطليقات لان كل نصف يتكامل في نفسه فتصير ثلاثاً »

هـذا واما ما كتبوه في الحقوق وسموا مجموعه بالمعاملات فلا انكر انهم اجادوا في بعضه بحسب أزمنتهم وأمكنتهم وانما الذي انكره هو : (١) انه يكفي لزماننا ويغنينا عن غيره (٢) وانهم استفادوا كل ما كتبوه من الدين ولا دخل لعقولهم فيه (٣) وانه لا يغني عنه غيره (٤) وانه لم يكن آلة بيد القضاة والمفتين ومن في حكمهم يعبثون فيه كما شاؤا (٥) وانه ليس من المضر تقديسه الذي جعلنا ينابذ بعضنا بعضاً من اجله وتقديس المحاكم المنسوبة اليه التي كانت ولا تزال بقاياها ميداناً تتجلى فيه الغرائب

هذا كله هو الذي انكره انكاراً مقروناً بالدليل القاطع لمن شاء ان اذكره . وليس بخاف (١) ان أزمنتهم غير زماننا الذي تغيرت فيه التجارة وابوابها وفروعها تغيراً مهماً (٢) وان الرسـول صلى الله عليه وسلم بتصريحه لمعاذ بن جبل وعلي بن ابي طالب رضي الله عنهما أن يعملا برأيهما اذا لم يجدا نصاً كفانا مؤنة السلاسل التي ربطنا الناس بها اقوام كتبوا الكتب بايديهم ثم قالوا هذه من عند الله (٣) وان هـذه الامم التي ليس عندها هذه الكتب قد اغناها الله بفضل عقولها في تدبير التجارة والبيوع وعقد الشركات وامضاء المعاهدات وادارة المنافع العامة وترتيب العقوبات وجباية الاموال وتنظيم الجيوش واعداد مايحفظ المجد ويعلي الشأن في السلم والحروب (٤) وان هذه الاقوال المتضاربة المتعارضة ليس لا كثرها من سبب الا منافع القضاة ومن في حكمهم (٥) وان اعتناء كل طائفة بمذهب واحد على ما فيه

من آمدد المرجحين قدفرق كلمة المسلمين منذ زمن بعيدحتى أوصلهم الى هذه الحالة (وهل منكر لها ؟) بمقتضى السنة الالهية . هـذا ما قلت زبدته واعدته اليوم مع شيء من التفصيل وأن الاخ حفظه الله ليعلم أن هذا الموضوع لا يوفيه حقه من البيان الا مئات من الاوراق وفي ذكائه وأمعانه وأمعان الاذكياء غنية وكفاية

كلام صديقي

يحتاج الجواب عن كلام صديقي الى افراد مندرجاته فهو ينحصر في هذه المسائل (١) لابد لكل امة متمدنة من قانون جامع لجزئيات الحوادث (٢) الاسلام جاء باسمى ماتتطلبه الحاجة المدنية الا ان ماجاء به قواعد كلية (٣) الاحاطة بالجزئيات موكولة الى افهام رجال العلم والعقل مع ارجاعها الى تلك القواعد (٤) علماؤنا فعلوا مايجب عليهم من هذا القبيل واحاطوا بكثير من الجزئيات التي دعت اليها حاجة كل عصر الا مافاتهم من تحديد بعض العقوبات وترتيب المحاكمات والتفريق بين الحقوق العمومية والحقوق الشخصية تفريقاً يتعين معه الاختصاص بالدعاوي العمومية التي كان القضاة فيها خصماً وحكماً في آن واحد (٥) علماؤنا برعوا في علم الحقوق الى حد جعل هذا العلم عند المسلمين يكاد لايترك صغيرة ولا كبيرة من الجزئيات الا احصاها الا انه مشوش بكثرة ما اختلفوا فيه حتى في المسألة الواحدة (٦) سبب هذا الاختلاف انفراد الآحاد بالتشريع (أي التفريع) بحيث يجوّز الواحد منهم مايمنعه الآخر وبالعكس (٧) سبب هذا

الافراد التساهل من المسلمين في ترك سلطة التشريع فوضى يتناولها من شاء ومن ليس بمعصوم من الافراد وذلك لم تفعله أمة متمدنة من قبل (٨) لو فهم المسلمون منذ استفحل أمرهم واشتدت للقوانين الجامعة حاجتهم معنى مايسمى عند علمائهم الاجماع لاستفادوا منه الى الآن فوائد كثيره ولما تركوا أمر القوانين فوضى لا يعتمد فيه الا على قال فلان وأفتى بخلافه فلان ولكانوا عهدوا بتفريع الاحكام واستنباطها الى جماعات من أهل الفضل والاجتهاد ينوبون عنهم عندمسيس الحاجة في تطبيق الاحكام على الحوادث في كل زمان ومكان (٩) لما لم يفهوا هذه القاعدة واغفلوا العناية والنظر بامر القوانين كان وضع الائمة والعلماء لعلم الفروع الذي قلت عنه انه مجموع قوانين لازماً (١٠) تسليم سلطة التشريع للجمع لا للآحاد ليس فيه من حرج أومانع يمنعه من الدين والذي سوغ للفرد ان يضع أو يستنبط ماشاء من الاحكام التي تمس اليها الحاجة يسوغ للمجمع كذلك وهو الاحوط أيضاً في الدين والدنيا (١١) اعترف حفظه الله بان هذا الخلاف الذى شوش نظام المعاملات بين الامة يكاد يجعل علم الفروع في المرتبة التي ذكرت (١٢) وانكر قولي انه ليس من علوم الدين وانما هو مجموع قوانين وضعها المتقدمون قال بل رأيي انه من علوم الدين باعتبار انه مستند الى أصول عامة في الدين وانه قانون باعتبار انه داخل تحت حكم الرأي والقياس والاجتهاد أو هو نتيجة تطبيق الاحكام على حوادث حدثت بعد للمسلمين وروعيت

في وضعها اصول الدين (١٣) مسوغ الاجتهاد ميسر لكل عالم من علماء الشريعة بلغ مرتبة الكفاءة غير محظور عليهم في عصر من العصور (١٤) العلماء بين امرين اما أن يعتبروا ان كل ماحرره الائمــة وقرروه هو من الدين فيلزمهم في هــذه الحال التسلم بما حرره جميعهم من الاحكام ويلزم من هذا جواز انتقاء الاحكام الموافقة لحالة العصر من كتب المذاهب وتدوينها في كتاب خاص ليس فيه ادنى شائبة من مثارات الخلاف أشبه بقانون عام شامل لسائر حاجات الاجتماع يعمل به المسلمون على اختلاف مذاهبهم وأما أن لايعتبروا ماحرره الائمة من الدين بل يعتبرونه رأياً أداهم اليه الاجتهاد وان هذا هو علة اختلافهم في الاحكام منعاً وايجاباً بحيث يجوز الواحد مايمنعه الآخر وفي هذه الحال يجوز لهم الاجتهاد كما جاز لغيرهم فيتفق جميعهم على جمل علم الفروع علماً نافعاً في هذا العصر مراعى فيه جانب الحاجة مضافاً اليه مافات المتقدمين من التوسع في مناحي أخرى اصبح التوسع فيها الآن من ضروريات الحياة الاجتماعية .

- جوابي -

الذي يراني متصدياً للجواب يظن انني اقصد رداً على صديقي الفاضل وليس كذلك بل ليس في مقدماته مايرد غير ان النتيجة الحسنة التي أشار اليها لانحصل عليها وعلم الفروع الحاضر هذا حاله من التشويش الذي اعترف به وهذا حال كل فريق منا من تقديس

مايتسب اليه واعتبار كل ماجاء تحت اسمه من عند الله عز وجل
على ان الجواب على الافراد يزيد المسألة وضوحاً وان لم يقصد به
ردّ وهذا هو .

ج (١ ــ ٢ ــ ٣) ماجاء في هذه الارقام مسلم ما انكرته ولا
انكره . أما كون كل أمة متمدنة لابد لها من قانون جامع لجزئيات
الحوادث فيكاد أن يكون من العلوم الضرورية بل الامم البدوية أيضاً
لاتستغني عن قانون يجمع لها جزئيات الحوادث بحسب حاجتها .
وانا لنعلم بالاختبار ان هؤلاء الاعراب الضاربين في مهامه الشام
والعراق لهم قضاة يدعون واحدهم بالعارفة يقضي بينهم باحكام
يتداولونها ويسمون معلوماتهم في الاقضية بشرع العرب ولم يفهم
النصيب من عقولهم وذواكرهم لما عدموا النصيب من الكتابة
والتدوين . وجزئيات الحوادث في كل أمة تكون بحسبها من المعيشة
والعادة والعقيدة . ومهما كانت الامم من الجاهلية لاتلبث متى رمت
بالقدم الاولى في ميدان المدنية أن تصطلح على قانون يوحدها مثل لهذا
بامة الرومان ثم اصول الامم الاوربية الموجودة ثم مثل بالعرب بعد
ان كثرت فتوحاتهم واشتدت لوسائل العمران حاجاتهم ودخل في
حوزتهم امم شتى كانوا ذوي صناعات وزراعات وتجارات ولهم قوانين
قديمة وعادات راسخة وبالجملة أن التشريع في الامم ضروري ولكن
الناس يتفاضلون فيه فمنه الصالح والاصلح وضدهما

وأما كون الاسلام جاء بأسمى ما تتطلبه الحاجة المدنية

فهو من اجزاء معتقدنا ومتممات ايماننا . ما جاء به الاسلام قواعد كلية والاحاطة بالجزئيات موكولة الى افهام رجال العلم والعقل مع ارجاعها الى تلك القواعـد والاختلافات انما نشأت من الافهام وهي اختلافات عظيمة فاذا فرضنا مائة قول في مسألة ما (وهو فرض له تحقق) فالمصيب منها واحد والمخطئ ٩٩ حرموا من العقائد الكلية التي يرجع اليها كل واحد بما قال كما حرم أصحاب المذاهب في العقائد الاسلامية من القواعد التي هي اصول . ثم هل نستطيع ان نبرهن امام مناظر اجنبي على أن العقل الانساني السليم لا يمكن أن يحيط خبراً بتلك القواعد المحدودة الا أن يسمعها ؟

ج (٤ ـ ٥) مما تقدم يعلم الجواب عما جاء في ٤ ـ ٥ فانا قبلنا أن التشريع ضروري للامم وكل امـة قد خلت لهـا حديث في الآخرين يتلونه مستبصرين وعلماؤنا الذين اشار اليهم انما هم كالذين خلوا فالئن قلنا انهم سدوا حاجـة زمانهم فما نحن بلومين اذا قلنا ان ما نقدسه اليوم هي مجموع كتاباتهم التي اقتضتها عصورهم وطابقت عقول معاصريهم من الحكومات والرعايا كيف كان الحال . اما كونهم برعوا بذكر الجزئيات فلاتخاذ الكثيرين هذه الصناعة ديدناً في كل عصر ومصر ووقع مثل هذا لكل امة متحضرة . وان أدري هل اغنتهم براعتهم تلك عن ذلك الاختلاف المشوش ام كان نصيبهم منها نصيب من كان قبلهـم ممن اوتوا الجـدل وحرموا العمل نصيب اولئك الذين كانوا يتجادلون بالمذهب في القسطنطينية والفاتح

على اسوارها :

ج (٦ ـ ٧ ـ ٨) قال حفظه الله ان سبب هـذا الاختلاف انفراد الآحاد بالتشريع وسبب هذا الانفراد تساهل المسلمين في ترك سلطة التشريع فوضى يتناولها من شاء واقول : ان القوم يزعمون ان كل ما كتبوه هو من عند الله يجب التسليم به والاعتماد عليه وان هؤلاء الكتاب لم يحدثوا شيئاً من عند انفسهم والمسلمون الذين عزي اليهم التساهل لم يكن لهم شيء من الامر في العلم حتى يكون لهم صوت في التشريع · وهاءنذا اذكر للصديق اعزه الله سبب ذلك الانفراد أو سبب تساهل المسلمين

المسلمون ليسوا شعباً واحداً وليسوا على سنن واحد في النحلة والعادات · المسلمون بما تحيزوا للدول صاروا شيعاً في الآراء السياسية ثم بما تحيزوا للرؤساء في الدين صاروا شيعاً في الآراء العلمية والمذاهب الدينية · ثم بما تحيزوا للجنس صاروا شيعاً في المشارب والمعايش ·

لم يمض الثلث من القرن الاول على المسلمين حتى كفر بعضهم بعضاً فتحاربوا وتحازبوا وتخاذلوا الى ان انقسموا الى ثلاث فئات فئتان تشايع كل منهما رئيساً كبيراً واخرى خارجة عن دائرتهما ناقمة عليهما حاليهما ولم يمض الثلث الثاني حتى انقلبت دعوتهم الى الدين وتهذيب النفوس دعوة الى الملك والاستئثار وتوسيع ابهة الملك وجعله منحصراً في اسرة يحدث افرادها ما شاؤا ان يحدثوا ولم يمض الثلث

الثالث حتى تكاملت اصول الشيع وتلاحقت فروعها واينعت ثمراتها واحدث في الدين من احدث واخترع من اخترع فاختلفوا في القراآت فتعددت اشكالها وتعارضوا في الروايات فتناقضت احكامها وتباينوا بالفهم من النصوص فضاعت ثمراتها وتجادلوا في الفهوم فذهبت غاياتها . عقائد متباينة وعبادات مختلفة واقضية مضطربة وضمائر متباغضة فاين الاجماع ؟

أي أخي ! أفليس هذا هو امرنا في ذلك القرن الاول الذي عليه مدار فخرنا واليه يرد أصل مجدنا وفيه اتسع سلطان حكمنا وعلا منار ديننا . دع عنك زمن الخليفتين وقل لي متى كان الاجماع وكيف يجمع قوم حالهم ما ذكرناه آنفاً وأي المسلمين مطالبون أن يفهموا معنى ذلك الاجماع أعرابهم الضاربون في بطون الاودية وظهور الجبال ام امصارهم المؤلفة من ابناء الروم والفرس والقبط وقليل من ابناء الاجناد؟ من المطالب منهم بالتشريع : أولاة امورهم وهم من علمت بين لاه فرح بالنعمة الجديدة التي ورثوها وبين نشيط حازم مشتغل بتسكين تلك الفتن المعهودة أم الرواة الذين لم يكن اكثرهم يعلم اكثر من النقل والحكاية ؟

هذا ما ترك امر التشريع فوضى فبدأوا في ابتداء القرن الثاني يكتب كل واحد ما القى اليه استاذه وكثرت فنون الاختلاف وضروب التعارض واستعملت التقية فجاءت المذاهب على كثرتها وتعارضها مضاهية لاديان مختلفة حتى الفى اكثرها الزمان الذي جاء فيه حكومات

اخذت بما دوّنه قوم واعرضت عن الآخرين . فالحكومات هي بالفعل حصرت الميدان واغلقت الابواب والمتمذهبون اتبعوا فعل الحكومات بالقول بان باب الاجتهاد مسدود . على انهم نزعوا الى نقب السدود التي اقيمت فاستعملوا معاول الاصطلاحات والفرض والتقدير كفرضهم اذا تترس قوم بنبي (مع اعتقادهم واعتقادنا ان لا نبي بعد محمد عليه السلام) فنقلوا بالمذهب الواحد روايات متعددة عن أئمته في المسألة الواحدة حتى اعادوا المذهب الواحد مذاهب فاوصلوها الينا كما هي امام عين الناقد البصير

هذا هو الحال اجمالا وكل مطالع في تاريخ الاسلام يعلم ان كل طائفة من بلادهم شاع فيها المذهب الذي هويته نفوس حكامهم الاول . فهل يرجى بعد تحكم تلك المذاهب في كل ناحية الفت الناس عنها ؟ وان كان لا يرجى فهل يقال ان بقاء هذا الحال غير مخل بالفائدة ومضر ؟

ج (٩) يعلم الجواب عما جاء في (٩) من الجواب على ٤ و٥

ج (١٠ ــ ١١ ــ ١٢ ــ ١٣ ــ ١٤) اوافق في كل ما جاء في هذه الارقام صديقي الفاضل واضم صوتي الى صوته ولكن هل يساعد علم الفروع المدون الحاضر على القول بهذه الاقوال وان لم يساعد فمن المخاطب ان يقوم للمسلمين بهذه الخدمة الجليلة والى متى نقول بلا عمل ؟ ها نحن اولاء بهذه المناسبة نقترح على المنار الانور ان يفتح باباً لهذا الموضوع الجليل يقبل فيه اللوائح التي ترد اليه

في كل باب من ابواب الفروع بعد عرضها على جمعية علمية تنعقد في القاهرة لهذه الغاية بهمة الاساتذة ومتى انعقدت هذه الجمعية التي يكون لتصديقها على اللوائح المنشورة وقع في قلوب الامة لأنه شبيه بالاجماع يكثر بيننا النبهاء الذين يوجهون انظارهم نحو هذه الغاية

وبعد فقد طالت الرسالة ووجب الاكتفاء والله المسؤول ان يلهم المسلمين الصواب ويحرك منهم دواعي الجد في حفظ بقايا المجد

الحقيقة والفقه الاسلامي

« المقالة الثانية »

هذان مطلبان الاول منهما تمهيد للثاني وهو جواب لكلمة اخ كريم والثاني تقوية لمتن ما نذهب اليه بشأن الفقه

ان الذين قرأوا « المنار » الزاهر يعلمون اني نشرت هناك حقيقة مهمة كانت قد طوتها يد السيطرة قروناً من الدهر تلك هي حقيقة الفقه الاسلامي بما كان عليه وما آل اليه . واليوم قد جاءني كتاب كريم يقول فيه الاخ « مقالة الفقه الاسلامي راقت ناساً من الافاضل وعلى كل فالامل معقودة نواصيه ان تخفف الوطأة بعدها ولا نفرط في الحملة على كسر كل القيود مخافة ان نصبح بلا قيد » . هذا كلامه وهي وصية حكيم متبصر بالمقدمات والنتائج ولكن رأيت ان

اعرض لنظاره كل المقدمات والنتائج في هذا الباب ليتبصر بها ثانياً وقد جرت اجابته العودة الى الموضوع الاول فتألفت منهما هذه الرسالة :

﴿ من ع . ز (في دمشق) الى م . ك (في مصر) ﴾

في ساعة كنت اتمنى فيها انشراح الخاطر وانجلاء الناظر اتم الله بغيتي بورود كتابك الكريم (المؤرخ في ٣٠ جمادى الثانية سنة ١٣١٩ فصافحته يد لمصافحتكم مترقبة . وطالعته عين لقراءة الكمال في مظاهركم مستشرفة ووعته مدركة بصور فضائلكم متزينة فحمدت واهب النعم على سلامتك وبشرت بها عصابة الفضل جمهور الاخوان .

ورد كتابك عن البلاد التي دالت لها المحاسن اليوم حيث العلم مفتحة ابوابه مكرمة أربابه . تلك البلاد التي حشرت اليها الرجال فاتسع لهم صدرها فجزوها بما رحبت لهم تنويراً . وهذا كتابي اليك من البلاد التي امامها ولا ازيدك حيث العلم مسدودة سبله . معذب أهله . هذه البلاد التي رخصت فيها اعمال الرجال فلم يرقهم سوقها فجزوها بما بخستهم نفوراً وتنفيراً .

هذا لكي لا ننسى نصيبنا مع نصيبك من ثمرات ما هنالك ولتذكر انك تركتنا ونحن اشوق اليك هنا منك الينا ثمة . فلقد تركتنا قليلين وكنا بك وبالرفيق من قبل كثيرين .

قلت لي في كتابك ان مقالة الفقه الاسلامي راقت ناساً من الافاضل وذكرت لي رغبتك بان لا أفرط في الحملة على كسر كل القيود مخافة ان اصبح بلا قيد وللاجابه عنه الفت هذا الكلام تحت عنوان « الحقيقة »

فاقرأه موفقاً ياعزيزي .

الحقيقة

من الناس مغرمون بالصدق وقول الحق حتى لوان احدهم فعل فعلة في ليل دامس بحيث امن ان يراه راء او يدل عليه دال ثم اضطره بالاتفاق مستنطق للاجابة باثبات أو نفي لما كان له في خلقه ذلك من سبيل الى نفي الواقع حذر الوقوع في الكذب الصراح . وربما حمله الشغف بالصدق ان يقول الحق ويقع في واقعة ليس لها كاشفة بعداً عن الكذب الذي يعده اشأم شيء . وقليل هؤلاء والاكثرون هم الذين يحبون الكذب يموهون الباطل ويثبتون المعدوم ويكبرون الصغير ويصغرون الكبير وقد يكون شيء فتسأل الواحد عنه فتراه يضم اليه اشياء او تكون اشياء فتسأله فيجعلها كأن لم تكن شيئاً موجوداً

والصدق حسن في ذاته لانه من التناسب المحبوب وحسن لانه نافع والكذب الذي هو ضده قبيح في ذاته وقبيح لانه ضار ولكن قد تحدث أمور يكون الصدق فيها ضاراً للقائل نفسه أو لغيره فهنالك تبيح الضرورة الكذب . قرر هذا العلماء كافة والشارعون عامة

فاتباع الحكمة والنظر للعاقبة وتطبيق المقال على مقتضى النجاة من الضرر هو الحد الوسط بين مذهب القليلين الذين هم مغرمون بالصدق غراماً لاينظر معه الى العواقب وبين مذهب الاكثرين الذين يحبون الكذب ويألفونه الى أن يصيروا ينطقون به من غير شعور .

هـذا الكلام منطبق على حالة القصد والتعمد وما من خلاف فيه الا في تعيين القدر في الوسطية . وقد يكون الكذب تقليداً اما عن حسن ظن بصدق الراوي واما عن ضعف ادراك وفقدان تمييز بين الجائز ان يكون وغير الجائز . وهذا النوع من حسن الظن وضعف الادراك وفقدان التمييز لا نؤاخذ الصادر عنهم شيء منه ولا نسميهم كذابين لانهم لم يتعمدوا الاختلاق ولكننا لا نشك في أن ضرره اعظم ضرر ولا نكع أن نسميه سقوطاً وخطأ . وحسن الظن قد يرجى لصاحبه علاج اذا كان يعقل البراهين واما ضعف الادراك فهيهات هيهات كم تنفد في أهله الحيل ويبطل العمل ويخيب الامل .

اما تعمد الكذب لجر منفعة صالحة للناس فالاكثرون على منعه وجوزه بعضهم واخترعوا فيه كثيراً من مأثور الكلام فمنهم من رأى اموراً لا يجتنبها الصبيان ومن في حكمهم من النساء والرجال الا باختراع المرهبات فوضع لهم مثلا ان كذا وكذا وكذا تورث النسيان او تقصر الآجال او تذهب الاموال او توجب الاسقام مما لا علاقة فيها بين بعضها .

وقد رأيناهم يعللون كثيراً من الاحكام بما مآله التمويه على على الخواص والعوام كاحتجاج بعضهم لوضع الستور على قبور الصالحين بان ذلك جائز بل لازم لاجل أن يعظمهم الناس وليت شعري هل يترتب على تعظيم الناس لهم فائدة في الدين أو في الدنيا .

دع عنك هـذا فربما عده الاكثرون هيناً وانظر الى المصيبة

العظمى التي ابتليت بها هذه الامة وهي تعمد الكذب على رسولها الاكرم صلى الله عليه وسلم لاجل الترغيب والترهيب فان هذا مذهب قد اختاره بعض المنتمين الى الصلاح ووضعوا فيه ما شاءوا ان يضعوا ٠ خذل الذي وضعه الزنادقة والمنافقون والمتعصبون لمذهب من المذاهب

وانا انقل لك في هذا المقام كلام العلماء لكي لا تخال كلامي جزافاً

قال العينيّ شارح البخاري (١ ــ ٥٥١)

السادس مما يتعلق بهذا الباب بيان اصناف الواضعين الاول قوم زنادقة كالمغيرة بن سعيد الكوفي ومحمد بن سعيد المصلوب ارادوا ايقاع الشك في قلوب الناس فرووا «انا خاتم النبيين لا نبي بعدي الا ان يشاء الله » ٠

الثاني قوم متعصبون منهم من تعصب لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه فوضعوا فيه احاديث وقوم تعصبوا لمعاوية ورووا له اشياء ٠ وقوم تعصبوا لابي حنيفة رضي الله عنه وقال ابن حبان وضع الحسن ابن علي بن زكريا العدوي الرازي حديث « النظر الى وجه علي عبادة » وحدث عن الثقات لعله بما يزيد على الف حديث سوى المقلوبات وقال الخطيب في الكفاية بسنده الى المهدي قال اقرّ عندي رجل من الزنادقة انه وضع اربعمائة حديث فهي تجول بين الناس٠

وقوم وضعوا احاديث في الترغيب والترهيب وعن ابن الصلاح قال رويت عن ابي عصمة نوح بن أبي مريم انه قيل له من اين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضائل القرآن سوره سورة فقال اني

رأيت الناس قد اعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن اسحق فوضعت هذا الحديث . وقال « نوح هذا ليس بشيء لا يكتب حديثه » وقال مسلم وابو حاتم والدارقطني متروك .

السابع يعرف الموضوع باقرار واضعه أو ما يتنزل منزلة اقراره او قرينة في حال الراوي أو المروي أو ركاكة لفظه او لروايته عمن لم يدركه ولا يخفى ذلك على أهل هذا الشأن . وقيل لعبدالله ابن المبارك « هذه الاحاديث الموضوعة (كأنه يقول ما الحيلة فيها) فقال يعيش لها الجهابذة (كأنه يقول يعرفها وينقدها الجهابذة) »

واما جهات الوضع فربما يكون من كلام نفسه او يأخذ كلاماً من مقالات بعض الحكماء او كلام بعض الصحابة فيرفعه كما روى عن احمد بن اسماعيل السهمي عن مالك عن وهب بن كيسان عن جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال «كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج الا الامام» وهو في الموطأ عن وهب عن جابر من قوله وربما أخذوا كلاماً للتابعين فزادوا فيه رجلا فرفعوه .

فتأمل أيها الاخ ملياً وقدر في انظارك مقدار هذه البلية التي اصابت الملة ولا تصدق ان الكلام يمكن ان يفرق بين بعضه متى كان معرباً منمقاً ولا تنظر للذين قالوا اننا نشم رائحة كلام النبوة وان كانت أنوفهم كانوف الهر ولقد رأف بنا الرسول صلى الله عليه وسلم حين علم اننا سنحدث عنه بعده فاوصانا ان نعرض ما نحدثه عنه على القرآن . ولا اظنن ان هنالك كتاباً مما يقص عن النبي خاليه

من الكذب والوضع لان المؤلف مهما تحرى يلتبس عليه الصادق بالكاذب لان ظاهر الصلاح كم يغر ويغش . ولقد سئل يحيي بن سعيد عن مالك بن دينار ومحمد بن واسع وحسان بن أبي سنان فقال « ما رأيت الصالحين في شيء اكذب منهم في الحديث لانهم يكتبون عن كل من يلقون لا تمييز لهم . وروى الخطيب بسنده عن ربيعة قال من اخواننا من نرجو بركة دعائه ولو شهد عندنا بشهادة ما قبلناها . وقال مالك ادركت سبعين عند هذه الاساطين وأشار الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون قال رسول الله عليه الصلاة والسلام فما اخذت عنهم شيئاً وان احدهم ليؤمن على بيت المال لانهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن ونزدحم على باب محمد محمد بن مسلم الزهري »

ومن هؤلاء من يضع قصصاً للاجواد والبخلاء . والشجعان والجبناء والاعلام والجهلاء . والعادلين والظالمين ليمدح ويذم . ويقرظ ويثلب . ويشوق وينفر . ويبارك ويلعن . وقولنا هذا لا ينفي ان تكون بعض القصص واقعة ولا ينفي ان تكون النية صالحة في وضعه ولكن الوضع ان نفع قليلا يضر كثيراً لانه غالباً غير مستند الى مقدار فيستعجل تصديقه والاعتماد عليه بضعف الادراك وقلة التمييز وتشوش الحقائق .

ولم يكن من داع لذكر هذا الا ما تعلم يا أخي من ولوع الناس بالقديم ونسبة البركة والتقديس الى الاقدم فالاقدم . هذه هي المسألة

التي اضلت الامة وأزلتها عن معارج الارتقاء . ولولا هذه المسألة لما كان علينا من سبيل اذا قلنا الحق في شيء يظهر فيه كذب بعض وخطأ بعض من الذين خلوا من قبلنا .

أما وقد فعلوا بعقولهم ما فعلوا من تقييدها واستقامها فقد اصبحوا لا يرضون عنا الا ان نفعل بعقولنا كفعلهم أو اشد واصبحنا نحن بين ثلاث اما شهادة ان لا عقول الا عقول الاقدمين ولا فضل الا فضلهم واما السكوت امام الذين يقولون ونحن صاغرون واما الجدال وقول الحق في ما نعلم .

هذه الثالثة هي التي يصعب الاقدام عليها والاحجام عنها لان الاقدام عليها يصوب على صاحبه سهام الملام وربما لامك أيها الانسان اعز صديق لديك وافضل محب لك ومحبوب عندك وهذا هو الذي تخضع اليه النفس دون لوم البعداء ولو زلزلوا الجو برعودهم . وأما الاحجام عنها فهما راودنا النفس ان تجنح اليه نرى حب الحقيقة يجمح بها عن الاصغاء . افما نحن بمعذورين .

كيف ونحن نرى بلاداً ازهرت فيها العلوم فاثمرت لاهلها انتشار العدل . وشيوع الامن . وتيسر الاسباب . وبلاداً اقفرت من العلوم فكثر فيها الظلم . وشاع فيها الخوف . وتقطعت فيها الاسباب . فتتمنى (والانسان بالطبع محب لنفسه ولجنسه ولبلاده) ان يكون لهذه البلاد نصيب مما لتلك فنرى كلما رام احد ان يأخذ عن أولئك شيئاً من العلوم نافعاً سخر الملأ من قومنا بعقله وعلمه بل قالوا كافر أو مفتون

واذا اردنا ان يعطوه شيئاً من علومهم قالوا له بادئ بدء اعلم وتعلم ان المياه التي يجوز التطهير بها سبعة مياه ثم عدوها ماء السماء وماء البحر وماء النهر وماء العين وماء البئر وما ذاب من الثلج والبرد واشغلوه أياماً بتفقيه الفاظها ومعانيها واحكامها وانما هي ماء واحد ٠

وها نحن نرى اليوم نزاعاً بالفعل قائماً في القلوب والالسنة والاوراق بين فئتين ممن تمني اليهم فئة تهاجم في سبيل الاصلاح وأخرى مدافعة عن أشياء كثير منها مفترى اما لتقديس الفاظها واما للتمسك بما لها غير حاسبين للنتيجة حساباً ٠ فاذا من الرأي لامرئ ابتلى في مجتمع هذا حاله ٠ أينحاز الى زاوية بيته وهي خلة لايبيحها علم الاجتماع خل عنك انها لاتتيسر أم يتصامم عن دعاوي الفئتين ويرمي بعقله بين أقدام الفريقين وحاشا لامرئ أوتي ذرة من فهم الحكم في الوجود أن يسمح باهمال استعداد لم يمنحه الله للعبد سدى ٠ ولم يكن الله ليرضى عن عبد يرى الحق ويستطيع أن ينصره فلاينصره ٠ ويرى الكذب ويستطيع ان يخذله فلايخذله ٠ قال في كتابه المجيد «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ٠ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ٠»

ونرى أيضاً ناساً يمدحون هذه المحاكم المسماة بالشرعية وهي محاكم نعرفها حق اليقين فما علماؤها الا ميدان حيل ٠ وحلبة تلفيق وسوق تزوير ٠ فيها يجوز بيع البلد بما فيه بفلس واحد قد جعلوا هذه القاعدة تأسيساً لاضاعة كثير من الحقوق وتحيلا على الربا ٠

وفيها الطلاق ازواج مطهرة لاذنب لهن الا ان بعولتهن اقسموا بفروجهن فيها لادخل لهن فيه . بل لاذنب لبعولتهن اذ اقسموا الا تقييد القوم ذلك في كتبهم والناس بما كثر فيهم من الكذب ميالون الى اقناع السرائر باغلظ الايمان . وان كلمة توجب فراق حبيبة أم بنين وبنات لجديرة أن تعتبر أغلظ ايمانهم وتشيع في كلام البر والفاجر منهم

وبعد فما انا لانرى هذه الايمان الفاجرة عند غيرنا من الامم ومالنا لانراهم يوجبون الزواج على من قال عليّ النكاح أو الحلال كما يوجبون الطلاق على من قال عليّ الطلاق أو الحرام .

كل هذا نراه ونسمعه وعلمك أوسع من أن يحتاج الى بيانه وما طولت المقال فيه على انه حرف من كتاب الا ليسمعه غيرك وتصغى اليه أفئدة وتطمئن به قلوب .

أما أنت فتخشى أن يتعدى كلامي الى غيره مما نعتبره جميعاً مباركاً وهو الذي أشرت اليه بقولك « فصبيح بلاقيد » ولكن اذا تذكرت ان الذي تغار عليه قوي وان القوي يبقى ولايؤثر فيه شئ وانه لاخير فيما تقوم عليه الحجة وتزحزحه عن مواضعه ولاأسف على مايطير بنفخة روح الحق . ترى يومئذ انه لابأس عليه من كلامي هذا وكلام كل المتكلمين .

على ان الذى تغار عليه هو الذي غرس في نفوسنا حب الحقائق وقوى عزائمنا على قول الحق . وهو الذي نهانا أن نتخذ المشهورين أرباباً بمعنى أن نسلم لهم كل مايشرعون مما لم ينزل به الله سلطاناً .

وهو الذي عرفنا قيمة العقل . وهدانا الى نقد النقل . وهو الذي حذرنا من التمويه والمموهين . وقص علينا النفاق والمنافقين . وبين لنا الذين يكتبون الكتب بايديهم ثم يقولون هذا حكم الله . ألا ان الله بريء ممن لا يصلحون .

ولعلي أوضحت بما قدمت ان لاضرورة تدعونا الى اخفاء وجه الحقيقة في الفقه الاسلامي . وقد ذكرني كتاب الاخ حفظه الله ان أعود الى الموضوع فاقتطف مما يتعلق به طرفاً أهديه له لعله يرضاه ويرضى عنه الفضلاء الذين يحبون الحق وبه يأمرون

الفقه الاسلامي

اليوم نفصل في هـذه الرسالة أربعة من المباحث (١) تسمية هذا العلم بالفقه (٢) والكلام في مايسمونه أصول الفقه (٣) وفي مايسمونه الفروع (٤) ونبذة في الاجتهاد . وقد أيدت كلامي بشيء من النقل . واخترت أن أوجز وأختصر لئلا يطول المقال جداً

التسمية بالفقه

قال بعض الاذكياء ان المناقشة في الالفاظ ليس من شأن المحصلين وهو كلام ظاهره وجيه وقد كنا نود أن نتبعه على ظاهره لولا ما نعلم من أن شغف القوم بالالفاظ قد أدخل فيهم وسواساً عجيباً حتى أصبحوا لايجوزون اطلاق لفظ مشارك في الدلالة للفظ به يتمسكون ولا يسمحون باطلاق الالفاظ التي يتداولونها على معان مشاركة للمعاني

التي يقصدونها فالمعالجة من هذا الوسواس رأيت أن أتكلم على هذا اللفظ الذي انتحلوه اسماً لعلمهم .

الفقه كما هو معلوم لفظ مرادف للفهم وكل علم من علوم الدين والدنيا محتاج صاحبه الى الفهم ولو سمينا علماً من العلوم بالفهم لحسن أن نسميه أيضاً بالادراك والتعقل وفي هذا من البعد ما لا يخفى فلولا ان الاصطلاح لا يناقش فيه في الغالب لاحتاروا اذا سألهم السائل عن وجه التسمية .

والذي حمل القوم على اختيار هذا اللفظ وروده في قوله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة طائفة منهم ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » ووروده في قول الرسول صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . على ان المتأمل يرى ان الدين ليس عبارة عما ذكروه من المسائل فقط بل ليس المراد به في الآية والحديث ما ظنوه . بل المراد أمور هي أعلى من معرفة غسل السبيلين ومسح الخفين وأمثال هاتين . .

والغزالي من قبلنا قد ناقشهم الحساب على هذه التسمية فقال في بيان ما بدل من الفاظ العلوم :

اعلم ان منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الاسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالاغراض الفاسدة الى معان غير ما اراده السلف الصالح والقرن الاول وهي خمسة الفاظ « الفقه » « والعلم » « والتوحيد » « والتذكير » « والحكمة » فهذه اسام محمودة

والمتصفون بها ارباب المناصب في الدين ولكنها نقلت الآن الى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع اطلاق هذه الاسامي عليهم (اللفظ الاول الفقه) فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل اذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها فمن كان اشد تعمقاً فيها واكثر اشتغالا بها يقال هو الافقه . ولقد كان اسم الفقه في العصر الاول مطلقاً على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله عز وجل ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم . وما يحصل به الانذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والاجارة فذلك لا يحصل به انذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له وقال تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها » وأراد به معاني الايمان دون الفتاوى .

وقد سرد رحمه الله امثلة كثيرة من هذا القبيل الى ان قال :

ولست أقول ان اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الاحكام الظاهرة ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع فكان اطلاقهم له على علم الآخرة اكثر فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس

على التجرد له والاعراض عن علم الآخرة واحكام القلوب .

هذا كلام امام عظيم يجله المسلمون على اختلاف مذاهبهم وهو وهو حجة كما ترى دامغة . وآية بينة . وبرهان ساطع . فان كان السامع لا يرضيه كلامي لاني جئت متأخراً فهذا كلام امام كبير قد جاء متقدماً (٥٠٥)

هذا الكلام ينبئك ان لفظ الفقه انتحله هؤلاء العلماء من بعد اطلاقه على علم احوال القلوب والآخرة لما فيه من شرف سابق في نظر الخاصة والعامة . وههنا ستعجب منهم اذا اردت ان تطلق على علمهم اسم « نظام » فانك لا تجدهم الا منكرين أشد الانكار

ولا اشك بان معاصرينا من منتحلي هذا الفقه قد غاروا وغضبوا من ذلك العالم المسيحي الذي سمى القانون الروماني بالفقه الروماني لاجل المشاكلة مع الفقه الاسلامي في مقالة له كما يغارون ويغضبون من قولي عنه « العالم » فاني قد علمتهم يأنفون من تسمية غير فقههم من الشرائع بالفقه وان لم يكن في هذا اللفظ مزية ظاهرة كما يسخطون أن يتعلم علمهم واحد من امة اخرى وان يقال عن رجل من غيرهم انه عالم . بل هم لا يسمحون ان تمنح الطبيب مثلا اسم العالم ولو كان منهم

اصول الفقه

من يسمع هذا الاسم (اصول الفقه) يخل انه عبارة عن قواعد كلية منقحة محكمة تتفرع عليها الحوادث والنوازل ويستند اليها في

الفتاوى والاقضية كالقواعـد التي أخذوها في أول المجلة من كتاب الاشباه والنظائر

كلا ولكنه عبارة عن اصطلاحات وطرائق للاخذ من القرآن والحديث والاجماع والقياس وهي المآخذ عندهم ٠

اما القياس فليس لنا من ردّ عليهـم في جعله ركناً من اركان التفريع وليست حجج الذين انكروه بصحيحة بل الحجة للذين اثبتوه وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن فقال له بم تقضي يامعاذ فقال بكتاب الله قال فان لم تجد قال بسنة رسول الله قال فان لم تجد قال اجتهد رأيي فقال عليه الصلاة والسلام الحمدلله الذي وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله ٠

وانت خبير ان معاذ حين بعث هـذه البعثة لم يكن القرآن تم نزولا ولم يكن معاذ يحفظ كل ما نزل منه لذلك العهد ولا كل ما عرف من أقوال النبي واحواله ٠ فاحفظ هذا فسيأتي الاستشهاد به في الكلام على الاجتهاد

واما الاجماع فالغالب انه لم يقع ولذلك لاجدوى من تقريره أو جعله مأخذاً وبرهاني ان الذين يعتد باجماعهم كانوا بعيد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقين في البلاد فمن روى انهم سئلوا عن المسائل التي يزعم الناس فيها الاجماع فاجابوا بما وافق كلام الجمهور ٠ أما خلافة أبي بكر رضي الله عنه فلا تصلح مثالا لما نحن فيه لانها حادثة منقضية في وقتها وليست مما يترتب عليها حكم ٠ وأما اجماع من بعدهم من

التابعين وتابعي التابعين فهيهات هيهات ذلك احزن سبيلا وأبعدمنالا من اجماع من قبلهم واثباته اصعب من اثبات رمضان الذي يجهدون من اجله في المحاكم الشرعية دعوى ويلفقون تصويرها . ومن زاول التاريخ وأخبار الامة يؤمن بالذي قلته ولايجحده الامن أوقفهم التقليد في موقف واحد فهم عنه لايبرحون .

ولئن قالوا نحن انما نخصصه باجماع المجتهدين فنحن سائلوهم متى احطتم خبراً بكل مجتهد ووقفتم على مذاهب الجميع وهل اكتفاؤكم باتفاق ثلاثة أو اربعة أو خمسة يقوم حجة في اثبات تلك الدعوى العظيمة

وزعمتم ان سكوت البعض يعد اقراراً لقد شبهتم الرجال بالبنات الذين حكمتم عليهن بذلك أفلايجوز السكوت يأيها الناس لاسباب واسرار . ألم تروا ان عمر شاور الصحابة في مال فضل عنده فاشار البعض بامساكه الى وقت الحاجة وعليّ ساكت حتى سأله عمر فقال أرى ان يقسم بين المسلمين وروى في ذلك حديثاً فعمل به . أفترون لولم يسأل عمر عليا واستمر عليّ ساكتاً هل كان مقالهم ذلك اجماعاً أم ترون ان عليا لايجوز له السكوت وان كان هنالك أسباب تجوز سكوته ولو موقتاً . ولقد شاورهم مرة في اسقاط الجنين وقد كان هو ضرب امرأة الجناية فاشاروا بان لاغرم عليه وقالوا انك مؤدب وما أردت الا الخير وعليّ ساكت فلما سأله قال أرى عليك الغرة . وقد قيل لابن عباس مامنعك أن تخبر عمر بقولك في العول فقال درّته

وأنا لا أصدق بهذه الرواية تنزيهاً لهما معاً ولكن لا اكذب الحس والعقل والنقل بأن الناس قد يسكتون عما يعلمون لاعذارهم .

ثم يا عجباً للذين خصوا الاجماع باجماع عترة الرسول او باجماع اهل المدينة . على ان بعضهم لم يجعل الاجماع من اصله حجة .

وقد تتبعت كثيراً من المسائل التي ادعى الاجماع فيها بعض المؤلفين وصدق به الناس لعظم شهرتهم وحسن الظن بكثرة اطلاعهم فلم أر مسألة مما ادعوا فيها الاجماع متفقاً عليها كما ظنوا . وهكذا رأيت العلامة شيخ الاسلام في عصره تقي الدين بن تيمية سبقني الى هذا القول حيث رأيت في كتابه «رفع الملام» بعد تحرير هذا ما نصه :

«والاجماع المدعى في الغالب انما هو عدم المعرفة بالمخالف وقد وجدنا من أعيان العلماء من صاروا الى القول باشياء متمسكهم فيها عدم العلم بالمخالف مع ان ظاهر الادلة عندهم تقتضي خلاف ذلك . .»

والمصيبة في هذا انهم قد ذهبوا الى تكفير من يخالف الاجماع فقد يسمع هذه الفتوى بعض الحمقى ويسارع الى تكفير الناس الذين يتفق معهم احياناً ان يخالفوا الاقوال التي يدعون فيها الاجماع . فكأن الكفر عندهم عبارة عن مخالفة هؤلاء الاشخاص الذين ليسوا بمعصومين وان كان المخالف مؤمناً بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قلباً ولساناً ومتبعاً للنبي صلى الله عليه وسلم علما وعملا يا لله العجب !!!

وقد شدد الامام الغزالي رحمه الله على هؤلاء النكير في كتابه

« فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » وعقد للرد عليهم فصلا انقل هنا الشاهد منه قال لله دره :

«وأما مايستند الى الاجماع فدرك ذلك من أغمض الاشياء اذ شرطه ان يجتمع اهل الحل والعقد على صعيد واحد فيتفقون على امر واحد اتفاقاً بلفظ صريح ثم يستمرون عليه مدة عند قوم والى تمام انقراض العصر عند قوم او يكاتبهم امام في اقطار الارض فيأخذ فتاويهم في زمان واحد بحيث تتفق اقوالهم اتفاقاً صريحاً حتى يمتنع الرجوع عنه والخلاف بعده ثم النظر في ان من خالف بعده هل يكفر أم لا اذ من الناس من قال اذا جاز في ذلك الوقت ان يختلفوا فيحمل توافقهم على الاتفاق ولا يمتنع ان يرجع واحد منهم بعد ذلك وهذا ايضاً غامض »

وقد ختم هذا الفصل النفيس بقوله قدس الله سره :

فاذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه يخوض في التكفير والتضليل فاعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك فان التحدي بالعلوم غريزة في الطبع لايصبر عنه الجهال ولاجله كثر الخلاف بين الناس ولو سكت من لا يدري لقل الخلاف بين الخلق »

أعد نظراً في هذا الكلام السامي الذي يجب نقشه في لوح الذاكرة من غير ان يضيع منه حرف واقتد بهذا الامام الكبير اذا اشتهيت اتباع عالم متقدم .

وأما السنة فلا كلام لنا على استنادهم اليها وانما الكلام على

تحكماتهم والسيطرة على الناس بطرائقهم مع ان السنة علم معروف كتبها مدونة وعلماؤها اعرف بها من الذين الهاهم الاقبال على نوادر الفروع فهي تؤخذ عنهم لا عن هؤلاء

هذا وان علم السنة اصعب العلوم مراساً . واعزها منالا . لما هو معلوم مشهور من تفرق الناس شيعاً . وسلوكهم قدداً . ولقد اتت على الامة عصور عمتهم فيها البغضاء . وأعمتهم عندها الاهواء . وايد كل منهم مذهبه بالنقل . ودعا الى نحلته كل فاضل ونذل . يعلم هذا من ساير دفاتر القرون . واستمع الى ماتأثره الايام والسنون .

وناهيك بصعوبة التمييز في هذا العلم انك لا تكاد تجد عالماً متقدماً ومتأخراً من كبار العلماء ومشاهير الثقات الا نقل من الاحاديث الغث والسمين وخفيت عليه الشمال من اليمين ويصعب على ايراد كل ما اعرفه من هذا القبيل ولا يحتمله المقام . وهذا الامام الغزالي وهو حجة المسلمين في العلوم الالهية تراه قد اكثر في كتابه الاحياء من احاديث انتقدها عليه علماء هذا الشأن وهذا البيضاوي تراه ختم كل سورة بفضائلها من ذلك الحديث الموضوع المشهور واقتدى في هذا بمن لخص تفسيره عن تفسيره اعني الزمخشري بل هـذا صحيح البخاري وهو هو عند العلماء من الخاصة والعامة فيه جماعة جرحهم بعض المتقدمين كعكرمة واسماعيل بن ابي اوايس وعاصم بن علي وعمر ابن مرزوق وغيرهم . أما عكرمة فقال ابن عمر رضي الله تعالى عنه لنافع لا تكذب علي كما كذب عكرمة علي ابن عباس . وقال احمد انه

يرى رأي الخوارج الصفرية . اما اسماعيل بن ابي اوليس فانه اقر على نفسه بالوضع كما حكاه النسائي عن سلمة بن شعيب عنه . واما عاصم بن علي فقال ابن معين هو لاشيء وقال غيره كذاب . واما عمر ابن مرزوق فنسبه ابو الوليد الطيالسي الى الكذب .

هذامثال واحدفارجع الى كتب هذا العلم تر شأناً عجيباً تجدمن يعدله هذا يجرحه ذاك حتى تكاد ان لاتجد سالماً من جرح ثم قبل أن يتم اندهاشك من هذا تجد التعارض قائماً والتباين راجحاً . ثم تأتيك شبهات النساخ وماشبهات النساخ كانوا لا يعجمون الحروف فتشتبه الباء مثلا بالتاء والثاء والنون والياء . والجيم بالحاء والخاء . والدال بالذال . والراء بالزاي والسين بالشين . والفاء بالقاف . وقد تشتبه السين أو الشين بثلاث سنات فتحتمل كلمة «يبين» ومثلا «س» وقد تطمس سنة فيكفي أن تحتمل كلمة بسنتين ومنه آخر مثال قد مر بي الآن اذ كنت أطالع قبيل تحرير هذا وهو قول ابي برزة الاسلمي من كلام له « ان الله يغنيكم بالاسلام ومحمد عليه السلام » فقد اشتبهت (يغنيكم) على المحدث حتى قال « أو نعشكم » وجاءت في رواية راو آخر « انقذكم » وما هي ببعيدة شكلا في النسخ لمن تأمل و الشواهد في هذا الباب اكثر من أن تحصى ولعل ما قدمناه كاف في الاحتجاج على ان علم السنة انما يؤخذ من مظانه وان الاصوليين ماتصدوا له كما يستحقه فتفكر طويلا .

وأما الكتاب المجيد فهو الحجة العظمى . والعروة الوثقى . والنور

المبين والحبل المتين . وهو كما يعلم القارئون قد أنزل للتبيين وييسر للتذكير وانعم به للهداية . واكرمنا فيه للعناية .

كتاب عربي من عرف أساليب العرب يفقهه . ومن وقف على أقوال الرسول يتبحر فيه . لا يختص بفهمه أهل عصر ولا أهل مصر لانه خوطب به الذين آمنوا ممن صحب الرسول من بعدهم الى يومنا هذا والى أن يشاء الله .

هذا واني لا أرى مما كتبوه في هذا الباب مزية زائدة على مايعرفه كل من عرف أساليب البيان والخطاب فما بالهم يوجبون على الناس أن يضاهوهم ويقلدوهم ومابال فريق منهم جعلوا لكتبهم من الاعتبار اكثر مما له اذ قالوا ان مفاهيم الكتب حجة عندنا دون مفهوم القرآن . فتأملوا وأبصروا !

(علم الفروع)

ذلك علم الاصول وأما علم الفروع فهو مجموع مسائل تزايد عددها بتداول الايام بعضها مستند الى الكتاب والسنة وكثير منها مستند الى الظن والتخمين والفرض والتقدير بعضها مما يجوز وقوعه وبعضها مما لايقع وترى في كثيرها من التمحلات العجيبة . والتخيلات الغريبة . ومخالفة العقل والنقل ماتقف معه حائراً مندهش الذهن . وتراهم احياناً لايتحاشون من ذكر امور قبيح ذكرها .

وقد رأيت من الواجب ان أصرح بشيء من الامثلة لكي لايظن بي ظان اني افتري عليهم واسند مالم يقولوه اليهم ولا انظر ماذا يقول

الذين غلوا في حسن الظن بعقول من تقدمهم ولو بنزر من السنين ذلك الظن هو الذي عظم شأن تلك السيطرة التي قيدت الالباب . واغلقت الابواب وقطعت الاسباب . وقام مقام سلطة الارباب . وفينا راء وسامع والكل خانع وخاشع . وذلك مانهى عنه الباري . وحذر من مثله الهادي .

اني رأيت فيهم من عد صاحب الذكر الصغير من جملة المستحقين أن يقدموا للامامة . وعلل ذلك بان كان ذكره أصغر تكون عراقته في الاصل اكثر . ولست أدري كيف يفعل القوم حتى يعرفوا أعضاء بعضهم أبالاخبار وهذا لايتيسر لواحد الا أن يكون قد رأى غيره أم بالكشف وهم قد منعوه . ولا أدري الى أي كتاب وأية سنة يستندون في هذه المسألة . وأي عالم من علماء التشريح والاستقراء اثبت لهم تلك الفائدة . تأملوا وانظروا اعقول الذين تزعمون انكم تأخذون عنهم دينكم ..

ورأيت فيهم من ألحق ولداً جاءت به مغربية تزوجها بالمكاتبة مثلا مشرقي وبينهما من المسافة اذا أراد أن يجيء اليها ليجامعها اكثر من مدة الحمل عادة . وعلل بعضهم ذلك بوقوع الكرامة للاولياء .

ورأيت فيهم من أجاز تناكح البشر مع الجن ويلزمه أن لايرى بأساً اذا وجدنا حاملا لازوج لها من البشر وقالت لنا انها حملت من جنيّ .

ورأيت فيهم من فرض مسألة فقال اذا تترس الاعداء بنبي فكيف يكون العمل ثم أجاب عنها بقوله « قيل يسأل اي ذلك الزمان»في حين ان الايمان يجعل وجود نبي آخر مستحيلا . ونبينا قد انتقل ولم يتترس بهأحد ولا يرجع عصره وقد أراد بعضهم أن يصحح هذا الفرض والتقدير فقال ربما كان ذلك النبي عيسى عند نزوله وقد نسي ان الذين يكونون مع عيسى لايفرضون اعداء

ورأيت منهم من حرم بنتاً مس الانسان أمها بيده . ومنهم من حال بنتاً تولدت بالزنا من مائه . ومنهم من أجاز طلاق المكره وهو لاذنب له وطلاق السكران وهو لا يعقل مايقول . ومنهم من قال ينفذ القضاء بشهادة الزور ظاهراً وباطناً في العقود والفسوخ فتسلم المرأة لمن ادعاها ويحل له وطؤها وان كان هو الذي قدم البينة الزور . ومنهم من لايوجب عزل القاضي اذا أخذ الرشوة ومنهم من جعل للجار الشفعة مع ان النبي جعلها فيما لم يقسم فقط ثم بعد ان اثبتها حقاً علم الناس كيف يبطلون هذا الحق فقال ان اشترى داراً نخاف أن يأخذها الجار بالشفعة فاشترى سهماً من مائة سهم ثم اشترى الباقي وكان للجار الشفعة في السهم الاول ولاشفعة له في باقي الدار .

هذا وانا لم اذكر الاشرارة من تنور فلو طفقت اسرد الامثلة لقال السامع حسبنا نعوذ بالله ونسأله الحفظ والولاية . والتبصرة والهداية . ولعل الكثير اذا أردنا أن نزيد لايغني الذين لايحسون .

نبذة في الاجتهاد

هذه المسألة الدينية ولعل البحث فيها من انفع المباحث في الاصلاح الديني فاقد علم الذين يقرأون بالحس وليس بعده من برهان وبما ذكرناهم من الامثلة والشواهد ان هذا العلم الذي حقيقته نظام الامة قد شوهت وجهه الايام وأوصلته الينا كما أريناه للسامعين وانه لم يبق منه مع الزمان الا حروفه في الكتب وبقية في المحاكم الشرعية فسيقولون جميعاً اين اذن ذلك الشرع الحقيقي الذي كان عليه النبي واصحابه فتبيين هذا متوقف على اجتهاد وتتبع صحيح الآثار واستعمال سليم الفهم ·

وسيقول الذين يعرفون الحق بالرجال هؤلاء علماؤنا من قبل وانا وجدنا آباءنا لهم متبعين · فمن هذا الذي يزعم انه عالم بالدين ويجتريء على رد كلام للمتقدمين · فما نحن بتاركي علمائنا لعلمه بل نحن بعلمه جاحدون ·

قل هذا دين الله خاطب به المؤمنين · وكلف به العاقلين · فمن ذا الذي يحصر فهمه بالمتقدمين · ثم يحصره في الاربعة المشهورين ·

سيقولون هؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا في الاولين · وانا لنحن المقلدون · ومالنا من عقول كعقولهم بل هم الفائقون · ونحن المحرومون · وان قلدنا كنا من السالمين · وان لم نتبع كنا من المبتدعين الضالين ·

قل اصنعوا بانفسكم ماتريدون • أما نحن فمجتهدون • وما امامنا الا الكتاب المبين • ثم سنة الرسول الامين • ثم العقل الذي هو منّة رب العالمين • الذي كنا به مؤمنين • ومن اجله مكلفين •

يا أيها الناس ان الذي فرض القرآن قد يسره للذكر افأنتم تصدون ان يتذكر به المتذكرون • ها انتم هؤلاء تقولون ان ان نتبع الا المؤلفين وان نحن بمستمعين الا لاهل مذهبنا الكاملين الذين هم بالحق فائزون

الم تروا ان الدين انزله رب السموات • وعلمه الرسول عليه أفضل الصلوات فهل اتاكم من سلطان مبين في اتباع قوم معينين •

اتقولون لا يجتهد الا الاولون • هل عندكم من سلطان بهذا ان كنتم صادقين • ام تقولون لا بد للمجتهد ان يعرف كذا الف حديث مع الكتاب المبين • قل نعم ولكن هل كان يعرف ذلك المقدار المجتهدون من الصحابة والتابعين • وان معاذاً قاضي اليمانيين فهل عرف هذا المقدار يا أيها الشارطون • ام تقولون ان الاجتهاد انقطع منذ قرون • فمن ذلكم الذي قطعه يا أيها المصدقون • ما قطعه الا الحاكمون • وما اضل الناس الا المسيطرون • ما ضاع الكتاب ولا ذهبت السنة ولا خلق من غير عقل المتأخرون • ان تتبعون الا الظن وما تهوى الانفس وان الظن لا يغني عن الحق شيئاً افلا تتذكرون وما أراهم الا ممرضين يا اخلاي الاكرمين فدعوهم حتى يغلب على الوهم اليقين وسوف يعلمون

التصوف والمتصوفة

« المقالة الثالثة »

من العلوم الدينية عند المسلمين علم يقال له « التصوف » ويقال لاربابه « الصوفية » أو « المتصوفة » أو يقال الاول لصادقيهم والثاني للمتشبهين بهم . قال لي بعض الاصدقاء اني أرى اكثر المتقدمين والمتأخرين خائضين لهذا العلم معظمين لمن عظمه مزدرين بمن ازدراه فهل عندك خبر بحقيقة هذا العلم وأهله فحررت هذه الرسالة تبصرة له ولتصغى اليها افئدة الذين يحبون الحقائق . وجعلتها مقالتين .

(المقالة الاولى : ما هو التصوف ؟)

لقد كبر اشكالا تعيين معنى هذا اللفظ من جهة اللغة العربية كما كبر تعيينه من جهة الاصطلاح والاكبر منهما تعيين واضعه ومحدثه في الملة وتعيين زمن حدوثه واكبر الكبر تعيين فائدته .

وقد اختبرنا هذا العلم بفروعه وشعبه كافة وسمعنا ورأينا فيه اقاويل لاتحصى اذا سردنا منها شيئاً فانه لايجديك فنحن نذكر لك خلاصة مارأينا في هذا العلم ثم نردفه لك بنقل واحد حتى لاتظن كلامنا رجماً بالغيب أما الاكثار من النقول فقد لايجدي هنا .

« التصوف » لفظ ينتحله اسماً لمعارفهم ناس خلطوا اذ بحثوا في الفلسفة الآلهية بين ايراد كلام الفلاسفة الآلهيين من القدماء وبين

الشواهد القرآنية وأمثالها من الكلام النبوية . واخترعوا اصطلاحات صرفوا بها الالفاظ اللغوية عما وضعت له صرفاً لم يراعوا فيه العلاقه القريبة والقرائن الدالة ولانقدر أن نعين أول من كتب بهذه اللغة على هذا النحو ولكنا نعلم انه بعد ان دونت فيه الكتب غلا فيها أهله واغرقوا في التأويل وصرف الالفاظ فعبثوا بالفلسفة والدين معاً .

وكذلك ينتحله اسماً لعاداتهم وعباداتهم المخصوصة ناس آخرون قد اقتبسوا شيئاً من كلام الذين سلف ذكرهم وشيئاً من كتب السير والمناقب واخترعوا أشياء اخر واطلقوا هذا اللفظ على الملفق من الكل وربما أحب هؤلاء أن يطلقوا على أنفسهم اسم «الفقراء» ثم أبدلوا هذا الاسم باسم «دراويش» لغلبة العجمة على القوم .

هذا ما رأيناه بشان هذا العلم من بعد كثرة الاختبار فاسمع ماقاله غيرنا :

بعد ان ذكر السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ ستمائة واثنين وثلاثين في الباب السادس من كتاب «عوارف المعارف» (وهو من اجمع ما كتب في هذا الشأن) ان سبب تسميتهم بالصوفية لبسهم الصوف . أو لانهم لما آثروا من الانكسار كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية (تأمل) أو لانهم في الصف الاول بين يدي الله عز وجل أو ان الاصل في اسمهم صفوى . أو نسبة الى الصفة . وبعد ان ذكر لكل وجه من المذكورات شواهد قال مانصه :

«وقيل لم يعرف هذا الاسم الى المائتين من الهجرة العربية لان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصحاب رسول الله (ص) يسمون الرجل صحابياً لشرف صحبة رسول الله (ص) وكون الاشارة اليها أولى من كل اشارة . وبعد انقراض عهد رسول الله (ص) من أخذ عنهم العلم سمي تابعياً . ثم لما تقادم زمان الرسالة . ونأى عهد النبوة وانقطع الوحي السماوي وتوارى النور المصطفوي . واختلفت الآراء . وتنوعت الانحاء . وتفرد كل ذى رأي برأيه . وكدر شرب العلوم شوب الاهوية . وتزعزعت أبنية المتقين . واضطربت عزائم الزاهدين . وغلبت الجهالات وكثف حجابها . وكثرت العادات وتملكت أربابها . وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها . تفرد طائفة باعمال صالحة . وأحوال سنية . وصدق في العزيمة . وقوة في الدين . وزهدوا في الدنيا ومحبتها . واغتنموا العزلة والوحدة . و اتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى اسوة باهل الصفة تاركين للاسباب متبتلين الى رب الارباب . فأثمر لهم صالح الاعمال . وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم . وصار لهم بعد اللسان لسان . وبعد العرفان عرفان . وبعد الايمان ايمان . كما قال حارثة اصبحت مؤمناً حقاً حيث كوشف برتبة في الايمان غير مايشاهدها فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير الى معان يعرفونها . وتعرب عن احوال يجدونها . فأخذ ذلك الخلف عن السلف حتى صار ذلك رسما مستمراً . وخبراً مستقراً . في كل عصر وزمان . فظهر هذا الاسم وتسموا به . فالاسم

سمتهم · والعلم بالله صفتهم · والعبادة حليتهم · والتقوى شعارهم · وحقائق الحقيقة اسرارهم · سكان قباب الغيرة · قطان ديار الحيرة · لهم مع الساعات من امداد فضل الله مزيد · ولهيب شوقهم يتأجج ويقول هل من مزيد ·

هاءنذا قد نقلت لك بالحرف الواحد عبارة هذا الرجل الذي يعد من كبارهم او من كبار العلماء بهم · هذا الذي حشى كتابه باخبارهم ودونه للتعريف بهم والتسليك على طرقهم وشرح فيه من اصطلاحاتهم وتعليماتهم على اختلافهم ما لم يشرح احد مثله اذ جمع هو المفرق ورتب المبدد · وانت ترى انه قد اضطرب رأيه في سبب تسميتهم ثم ترى انه قد عدل عن الكلام التحقيقي بهذا الباب الى الخطابة وما يشبه الشعر

ولا يزداد تعجبي الامن قوله وقول غيره « اسوة باهل الصفة » فياليتهم عرفوا ان اهل الصفة لم يكونوا متعمدين لحالتهم وان اكثرهم اشتغلوا فيما بعد بما ينفعهم وانه لم يكن تركهم للاسباب ديناً به يتدينون بل لقلة الاسباب وانغلاق ابواب المعاش وهم ما كانوا الا غرباء فقراء

الصفة موضع مقتطع من مسجد النبي مظلل عليه كان الاوفاض والاخلاط من الفقراء يأوون اليـه · وكان ابو هريرة من اشهرهم وقـد روى البخاري عنه انه قال « لقد ادركت سبعين من اصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء · اما ازار واما كساء قد ربطوا في اعناقهم فنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية ان ترى عورته »

وقال أبو هريرة نشأت يتيما وهاجرت مسكيناً (اي فقيراً) وكنت اجيراً لبسرة بنت غزوان خادماً لها فزوجنيها الله تعالى فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً وجعل أبا هريرة اماماً » قال « وكنت ارعى غنما وكانت لي هرة صغيرة العب بها فكنوني بها » . وأبو هريرة هذا هو الذي روى عن النبي (ص) كما في البخاري انه قال لهم « لان يحتطب احدكم حزمة على ظهره خير من ان يسأل احداً فيعطيه أو يمنعه » وهو الذي صار عاملا لعمر بن الخطاب على البحرين بعد ان كان عريف أهل الصفة وهو الذي قال له عمر اني استخلفتك على البحرين وانت بلا نعلين ثم بلغني انك ابتعت افراساً بألف دينار فقال له كانت لنا افراس تناتجت وعطايا تلاحقت قال قد حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل فأدّه قال ليس لك ذلك قال بلى والله أوجع ظهرك ثم قام اليه بالدرة فضربه حتى ادماه ثم قال ائت بها قال احتسبتها عند الله قال ذلك لو اخذتها من حلال واديتها طائعاً . أجئت من أقصى حجر البحرين يجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين . ما رجعت بك اميمة (يعني أمه) الا لرعية الحمر .

هذا والمعروف من سيرة الصحابة انهم كانوا محترفين لا منقطعين عن الاسباب ولا منتظرين ان يعمل لهم غيرهم قالت عائشة « كان أصحاب رسول الله (ص) عمال انفسهم » فما بال القوم اقتدوا باهل الصفة ولم يقتدوا من باقي الصحابة بملوكهم العادلين وقضاتهم الصالحين

وتجارهم المجتهدين وأغنيائهم الشاكرين . وقد روى عن النبي (ص) كما في البخاري انه قال « ما اكل احد طعاماً قط خيراً من ان يأكل من عمل يده وان نبي الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده .

وما كانت اطالتي في هـذا المقام الا لمـا اعلم من ان الغاية التي يرمي اليها المتصوفون انما هي البطالة والتعيش من مال الناس ولاني رأيتهم يكثرون الاستشهاد بحالة أهل الصفة . ومن بياننا هذا يظهر للملأ ان هذا الاحتجاج ليس الا ضرباً من السفسطة والتمويه

دع الآن هـذا وارجع الى قول السهروردي في فصله ذلك « فظهر هذا الاسم » افلا تعجب من قوله هذا بدون توطئة لسبب هذا الظهور الا ما ذكره عن انتشار الفتن وتجنب هـذه الطائفة في زواياهم . وهو سبب لظهورهم لا لظهور اسمهم كما ترى . وهذا يدل على انه لم يقدر ان يعين سبب التسمية كما لم نقدر نحن .

ثم اذا لاح لك شيء في ذلك الكلام يبرد منه الصدر فاصبر نفسك معه . وان لم يلح لك شيء فاعلم ان المخترعات عمي علينا كثير من تاريخها وموه لنا كثير من زيوفها . فاضرب بنفسك عن مواقف التقليد . والتمس لك مخرجاً من مضايق المافيق

هذا أقل ما يقال في التصوف وهو سيكفي العقلاء المنتبهين والاغبياء لا يغنيهم هذا ولا غيره فسلام على أهل النهى .

﴿ المقالة الثانية : كيف نميز الصادقين من الكاذبين ؟ ﴾

من الناس من يقول حسبنا ما حررت فقد عرفنا الحقيقة . ومنهم من يقول ان الذي حررته صحيح ولكن لا نقدر ان ننكر وجود الصادقين في التصوف فان تبين لنا الفرق بينهم وبين المموهين الذين قد لا يظهر تمويههم يكن أعظم فائدة وأجمل وقعاً .

ياهؤلاء اقرأوا شيئاً من تاريخ الامم عامة ثم تاريخ هذه الامة المحمدية خاصة يظهر لكم ان كل أمة قام منها أفراد قليلون صادقون بالتمسك على ما تعلموا في دينهم وتعظمهم العامة لتخليهم عن دنياهم ثم قلدهم جماعات كثيرة في الزي والاصطلاح ابتغاء رضوان العامة ورجاء نوالهم لديهم وأقرب شاهد لديكم رهبان النصارى المتبتلون في الصوامع ففيهم الصادق في نسكه النظيف قلبه وفيهم المائن المحتال الملوث قلبه وكذلك رهبان مجوس الهند والصين ويظهر لكم ان هذه الحال لا يخلو عنها زمن من الازمنة ولا أمة من الامم . وان هذه الامة المحمدية طرأ عليها ما طرأ على غيرها من كل شيء

ويامن يريد الميزان ليعلم به الراجح من الشائل افرضني ونفسك في نقطة السذاجة ثم انظر أمامك الى الخطوط المسلوكة المطروقة .

هذه التي أمامنا طرائق قدد . والغاية محجوبة بعيدة . ها أنت ذا في هذه النقطة وأنا معك . والناس كل منهم سالك خطاً وأنت تريد أيضاً خطاً . فهل أنت مصدقي اذا قلت لك هذا هو الطريق

الاقوم والمسلك الاقرب ؟ انك ان تصدقني فما انا براض بتصديقك هذا لانه جزاف لم يكن لدليل ذكرته لك . اني لنظيرك في هذا الموقف ونحن سواء في الحاجة الى المعرف والمرشد . وكل منا اذا وجد المعرف يستهدى به . ثم هل نقنع ان نلتمس معرفاً ومرشداً من هؤلاء الناس الذين سلك كل منهم طريقاً بهواه . أو اقتفى به أمه وأباه ؟ اذن نحار في ترجيح جماعة على أخرى اذا لم يكن لنا معرف آخر من غيرهم وكيف يليق بنا ان نصدق قوماً ونكذب آخرين بدون سبب للتصديق والتكذيب ؟ تأمل أنعم النظر ارجع البصر !

يا رفيقي اني أرى كل أهل هذه الخطوط المطروقة متفقين على ان النهج المستقيم هو الطريق الذي جاء وصفه في الكتاب الذي نؤمن به . وما أحدهم اختلفوا في صحته ولكنهم اختلفوا بالفهم كاختلاف نفوسهم في الاغراض والمذاهب . والرسول الذي جاء به أولى الناس فهماً لما نزل عليه وأجدرهم تمسكا به وسيرته بالاجمال معروفة فلتكن سيرته هي الميزان لمن يدعون التنسك والتعبد .

والمشهور من سيرته انه كان يكره الرهبانية وقد تزوج ببضعة عشر امرأة وهؤلاء ابتدعوا الرهبانية وهي شعار الكثير منهم وكان يتخذ الاسباب ولا يهملها قبل النبوة وبعدها فتاجر طلباً للرزق . وهاجر من اذى العدو . وحازب الأوس والخزرج للانتصار بهم . وحارب قريشاً للانتصار عليهم . والف قلوب الذين نذلوا له الوئام

وانتقم من أعدائه أشد انتقام . وقد اتخذ صلى الله عليه وسلم في السلم والحروب كل ما يلزم من الاسباب . ولما هجم الاحزاب على مدينته أمر بحفر الخندق حين اشار به عليه سلمان الفارسي وعمل فيه بنفسه . وقد ساق الجيوش وقاد الجموع تارة مدافعاً وتارة مهاجماً . وقد قسم الغنائم واخذ منها لنفسه واخذ من أموال الاغنياء فاعطى للفقراء . وكان في نفسه كريماً عادلا عفيفاً يأكل ويلبس ما وجد ويأبى شعار المترفين . وفي اهله براً رحيما مشتغلا معهم في الحاجات واللوازم . وفي جماعته وصحابته سمحاً متواضعاً . معلماً ناصحاً . خطيباً مذكراً . وسطاً حكما . وفي محالفيه ومعاهديه وفياً ثابتاً . وفي مخالفيه ومناوئيه شجاعاً مهاباً . ومدبراً حازماً . وخصما قهاراً لاينى جده ولا يفل حده

كل هذا وغيره كان من عمل الرسول صلى الله عليه وسلم فهل المتصوفة على هذا النحو ام هم ميالون للبطالة نظيف القلب منهم ودنسه

فانا ان سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم معروفة بالاجماع والذي أشرنا اليه منها مشهور متواتر نقله المحدثون والمؤرخون فكل قول يستند اليه هؤلاء في مذاهبهم وطرائقهم مما يخالف سيرته فهو اما من مخترعاتهم كما اخترع غيرهم كل لتأييد مذهبه واما يحرفونه في استنادهم عن مواضعه ويسيئون تفسيره عمداً او خطأ . والاعمال أحسن المفسرات .

واما من البراهين على ان المتصوفة لم يقتدوا بالنبي عليه الصلاة والسلام في مخترعاتهم ما لا يسعه مختصرنا هذا ولكن نثبت واحداً منها فنقول :

نحن نعلم ان الانسان من حيث طبيعته في الوجود ليس الا حيوانا يتغذى كما يتغذى ويتناسل كما يتناسل وانما يمتاز الانسان بزيادة الادراك وميله للتكمل . واذا صرفنا النظر عن ميله هذا كما هو موجود في الاكثرين نجد بين اخلاق الافراد وبين اخلاق الحيوانات تشابهاً كالحرص والنهمة وغلبة الشهوة والشره والقناعة والعدوان والخسة والنذالة والأنفة والجراءة والخوف وغير ذلك من الخصال . ونرى الافراد متباينين ومتفاوتين فيها فمن هنا نعلم ان بعض اخلاق الافراد مشابهة لنوع من انواع الحيوان ثم يتفاوتون في تلك الاخلاق ضعفاً وقوة كتفاوت افراد ذلك النوع . ونعلم يقيناً ان سنة التكامل تقضي أن يكون الجامع لخصال كل الانواع اكمل ممن اقتصر على البعض لان كثرة المزايا اقرب للكمال من نقصها . وللفرار من الخصال المتناقضة الموجودة في غرائز الحيوانات المتغايرة لزم للانسان قانون الاعتدال . وهذا يتيسر متى كان العقل هو الحاكم الغالب . وهذا ما يسمى بالفضيلة والكمال وهو نسبي . واذا طالعنا سيرة كل الكمل نجدهم جامعين لكل الخصال مع الاعتدال . اذ قد جربنا ورأينا أن الواقفين مع الخصال القليلة لا بد ان تغلبهم سنن الوجود فينقلبوا الى اضدادها . وحسبنا في موضوعنا هذا ان نتخذ مثلا سيرة اكمل الكاملين الذي هو نبي هذه الامة

فاذا تراءى لنا من سيرته انه كان متوكلا فلا ينبغي أن نقف عند هذه الخصلة وننسى انه اتخذ الاسباب كما بينا آنفاً . واذا تراءى لنا

انه كان رؤفا رحيما فلا ينبغي ان ننسى انه كان غيوراً للحق شديد الانتقام من الباغين

واذا تراءى لنا انه كان يصلي كثيراً فلا ينبغي ان ننسى انه كان له شغل آخر بالعيال ولوازمهم والجماعة وتعليمهم وسوقهم للحروب واذا تراءى لنا انه كان متقشفاً في المأكل والملبس والمسكن فلا ينبغي لنا ان ننسى انه كان يراعي مقتضى الحال والزمان وانه كان يحب من الذبيحة ذراعها وهو اطيب اللحم ومن اللباس ابيضه وهو المناسب في الحجاز وكان يحب النساء ويحب من زوجاته اجملهن وهي عائشة رضي الله عنها . وكان يحب النظافة ويأمر بها ويحب الطيب وكان ينظف سنه . ويكحل عينه . ويرجل شعره . وكان يصوم ويفطر ويصلي وينام ولا ينبغي ان ننسى انه كان يستدين في حوائجه ويرهن في مقابلة الدين ولم يرو انه نهى اصحابه عن اطيب الطعام وطيب النكاح كيف وهو الذي نزل عليه « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »

في هذا القدر لمن ألقى السمع وأحضر العقل غنية وكفاية وهلم يارفيقي نرجع الى هؤلاء المدعين ونسبر خصالهم وننظر أي الحيوانات اشبهوا واي خصالهم اختاروا واستحبوا فوقفوا عندها وتلبسوا بها

نرى من هؤلاء فريقاً ادعوا القناعـة وتركوا السعي لا نفسهم وقعدوا ينتظرون من غيرهم فضلات ارزاقهم وفتات اخبازهم فان اعطوا شكروا وان حرموا صبروا هؤلاء الصادقون منهم واما الكاذبون

فان اعطوا طلبوا المزيد وان حرموا صاحوا وبغوا واعتدوا ومزقوا الاعراض فهل لهؤلاء من شبه الا ذلك الحيوان الذي يرصد الابواب وينتظر العظام وهل للكاذبين من شبه الا العقور من ذلك الحيوان .

ونرى من هؤلاء فريقاً ادعوا حب السلامة فركنوا الي التوحش وتمموا بالبطالة والراحة فهل مثل هؤلاء الا البوم

ونرى من هؤلاء فريقاً يهيمون في الارض لا يبالون بحال من الاحوال فاي فضل في هذا يا ترى للانسان واية مزية هذه حتى نسميها تصوفاً وهل لهؤلاء من مثل الا سوام الانعام . بل ربما كانت السوام اهدى سبيلا . واعمل في وظائفها الطبيعية من هؤلاء الآدميين

الانسانية غير هذا كله يارفيقي فان كان التصوف غير الانسانية فما اكثر تصوف الحيوانات التي يشبهونها . قال بعضهم ما معناه : « ان كان التصوف بلبس الصوف فالصوفي الخروف » .

واعني بالانسانية سر الكمال الذي زاد به الانسان على الحيوان الانسانية تلك القوى التي اوتيها الانسان وقيل له ان الشكر على هذه القوى اعمالها وكفرانها اهمالها . الانسانية تلك الاسرار التي تجلت جميلة في خصال كمل الرجال على قلتهم . وان كان التصوف هو السبيل الذي يوصل الانسانية . فليقلوا من غربهم ويذروا من غلوائهم وليأتوا الناس بما يفقه لفظه ويظهر معناه . ولا يتمذروا بالاصطلاحات . ويتعللوا بالاذواق . ويتستروا بالباطنيات . ويموهوا بالتبتل والانقطاع . فكلا قد سبرنا . وكلا قد حققنا . فليس الا

الايهام والابهام . والتدليس والتلبيس . وانا لا انكر على البعض سلامة الضمير ولكن كم يعكر الصافي ما كان رنقا وكم يعدي الصحيح ما كان جربا . وهل كل سليم الضمير ينفعه ضميره في اختيار السبل وانتقاء المشارب .

ونحن قلنا من قبل ان كل امة قام منها افراد قليلون صادقون في التنسك على ما تعلموه في دينهم ثم قلدهم جماعات كثيرة في الزي والاصطلاح . وبينا بعد ان اكثر الذين يتنسكون او يتصوفون في هذه الامة قد اساءوا التفسير عن الرسول اما عمداً أو خطأ فنشأت مذاهبهم وطرائقهم وتعددت مسالكهم بتنوع اغراضهم .

ولعل فريقاً من الذين يقدسون الازمنـة بقدمها يلوموننا على هذا الكلام . أو يرموننا بالهجر والبهتان . فنرجوهم أن يتذكروا ان العهد بالفتن والشرور البشرية قديم جداً . وان وجه الارض ماتطهر قط من رذائل التدليس وفظائع الاعمال في عصر من العصور . حتى يكاد الذي يرى كثرة الشر وقلة الخير في كل عصر أن لايجوز حسن الظن ولايلوم الذين يحذرون من التمويه والتدليس بل يقرع الذين يتخذون هذا ديناً وقربات

هذا الكتاب السماوي ترى فيه ان آدم بعد ان أهبطته مخالفته الى هذه الارض ورزق فيها نسلا قتل احد ابنيه الآخر فمن لملم القاتل باثرى ذلك الشر ؟ ونوح كثر افساد قومه وفي مقدمتهم ابنه فدعا عليهـــم جميعاً فكان طوفان . وابراهيم نهى قومه عن عبادة الكواكب فزجوه في النار . ولوط نهاهم عن الفاحشة المعلومة فآذوه

ودمرهم الله وفيما بينهم زوجته · وموسى اعترض على ملك مصر فطلبه ليقتله فهرب ومعه بنو اسرائيل ومالبثوا ان طفقوا يخالفونه · وعيسى أراد اليهود به فتكاً وألصقوا بأمه العار افكاً · ورسول هذه الامة رماه قومه بما رموه به من الصفات وآذوه بما آذوه من الفعال حتى هاجر عنهم وأعاد الكرة عليهم ·

وهذه الكتب الارضية كلها قائلة ان عثمان بن عفان وهو ختن النبي في عهده · وثالث خلفائه من بعده · قتله ناس من اصحاب النبي وأولاد أصحابه عمداً وتألباً لاصدفة وخطأ وعلي بن أبي طالب وهو ابن عمه وختنه ورابع خلفائه حاربه أصحابه وفي مقدمتهم مرة زوجته عائشة ومرة احد كتبة وحيه معاوية بن أبي سفيان · وحسيناً وهو ابن بنته قتله المسلمون تلك القتلة الملومة · وذريته من بعده اساء اليهم اقاربهم العباسيون تلك الاساءات المشهورة · فمتى صلح الزمان ؟ هل صلح بعد مقتل عمر حين ابتدأت فرقة المسلمين ثم عظم امرها حتى تباغضوا وتباعدوا · ثم تحازبوا وتحاربوا ثم تلاعنوا وتطاعنوا ثم تفرقوا شيعاً في الدين · وزمراً في المآخذ · ومذاهب في العلم · ومناحي في العمل · ثم تفرعت فرقهم وربت حتى تجاهلوا وغم بينهم الامر واصبح كل حزب بما عندهم فرحين وكل شعب على ما وجدوا آباءهم مقتدين ·

نحن نقص عليك من أنباء القدماء مايزداد به فقهك بان الامر الامر متسلسل في كثرة الشر وقلة الخير · هنالك تبقى ديّناً عاقلا لاتزعزع قلبك اهواء الملفقين ولاتميل مع كل من هبت ريحه بدعوى

التصوف والصلاح وما أشبههما من الابواب الدينية التي يدخلون منها للمقاصد المعاشية (فلقد قال المتنهون من قبل ان تغيير الشكل لاجل الاكل) فاسمع يارعاك الله ممنا . واحفظ راشداً مهدياً :

نقل الامام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ في كتاب آداب العزلة ان طاووساً جلس في بيته فقيل له في ذلك فقال فساد الزمان وحيف الأئمة ونقل في هذا الموضع أيضاً ان عروة لما بنى قصره بالعقيق ولزمه قيل له لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «رأيت مساجدكم لاهية . وأسواقكم لاغية . والفاحشة في فجاجكم عالية . وفيما هنالك عما أنتم فيه عافية» ونقل في هذا الموضع أيضاً ان أبا الدرداء قال «كان الناس ورقاً لا شوك فيه فالناس اليوم شوك لا ورق فيه»

قال رحمه الله بعد نقل هذه « واذا كان هذا حكم زمانه وهو في آخر القرن الاول فلا ينبغي أن يشك في ان الاخير شر» .

وبعد فالك وتلك العصور انتقل بسمعك الى ما كتبه عن عصره نفسه وهو هو بالمعارف الدينية والناس على ما تعرف من طباعهم في تقديس القديم يثبتون لعصره من الفضل ما لا يثبتون منه ذرة لعصرك لشدة ما بين العصرين من البعد لهذا العهد فاسمع ما قاله في الاحياء في كتاب ذم الغرور .

«الصنف الثالث المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان الامن عصمه الله تعالى اغتروا بالزي والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم

وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع اطراق الرأس وادخاله في الجيب كالمتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث الى غير ذلك من الشمائل والهيئات فاما تكلفوا هذه الامور وتشبهوا بهم فيها ظنوا انهم أيضاً صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم اعراض بعض مهما خالفه في شيء من اغراضه وهؤلاء غرورهم ظاهر . » انتهى بالحرف . وقد ضرب لهم مثلا امرأة عجوزاً تشبهت بالشجعان في الزي والحركات فاما انفذت الى ديوان العرض ظهر انها عجوز صعيمة فجوزيت لانها استخفت بالملك . ثم عد رحمه الله باقي الفرق المغترين من المتصوفة فذكر تسع فرق أخرى كنت أود أن انقلها هنا بالحرف لولا ما أخشاه من الاطالة التي تجنبتها . بيد اني أشير اليها هنا اشارة مختصرة فالفرقة الثانية من شق عليهم الاقتداء بالصوفية في بذاذة الثياب فطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبس أحدهم من الثياب ماهو أرفع قيمة من الحرير والابريسم وظن أحدهم انه متصوف بمجرد لون

الثوب وكونه مرقعاً . والفرقة الثالثة من ادعوا مشاهدة الحق ومجاوزة المقامات وتلقفوا من ألفاظ الطامات[1] كلمات فهم يزدرون بالعلم وأهله ويلازمهم الحائك والفلاح أياماً فيصير كأنه يتكلم عن وحي ويترك حياكته وفلاحته والفرقة الرابعة من وقعوا في الاباحة وطووا بساط الشرع . والفرقة الخامسة من اجتنبوا الاعمال وأدعوا المقامات من الزهد والتوكل . والفرقة السادسة من ضيقوا على أنفسهم في أمر القوت وأهملوا تفقد القلب والجوارح . والسابعة من أدعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال . والثامنة من اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الاخلاق وتعمقوا بالبحث والكلام عن عيوب النفس ولم يشتغلوا بالعمل . والتاسعة من أعجبتهم أحوالهم وتقيدت قلوبهم بالالتفات اليها . والعاشرة من كادوا أن يصلوا فتاهوا . قال رحمه الله بعد ان أنهاها وأنواع الغرور في السلوك لاتحصى .

قد يكفيك هذا في بابه ولكني أحب أن ازيدك هنا تنبيه لما قدمنا ولا تفهم من قول هذا الامام « وهم متصوفة اهل الزمان » أن الذي قبله لم يكن في متصوفة على هـذا النحو . او أن المتصوفة الذين وصفهم قد محا الزمان آثارهم من بعده . كلا بل ساعدها ورباها حتى انبتت في كل سنبلة سبع سنابل . وفي القرن الثامن قام

(١) الطامات في هذا الباب يعبر بها الغزالي عن اصطلاحات الصوفية الباطنية انظر الجلد الاول من الأحياء . بل انظر اللاحقة هنا

الشهير بابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧ وكشف النقاب عن اضاليل عصره في كتاب سماه «المدخل» وقد احببت أن انقل منه شيئاً هنا لتطمئن به القلوب:

قال في اواخر الجزء الثاني بعد ان ذكر المتشبهين بالمشايخ «واما غيرهم فقد خرقوا السياج وليس العجب منهم بل العجب ممن يعتقدهم أو يميل اليهم مع ماهم فيه من مخالفة الشرع الشريف مثل ما يفعله بعضهم من انه يظهر للناس الزهد في الدنيا وترك المبالاة بها حتى انه ليجلس مكشوف العورة . ومنهم من يدخل النار على زعمه ولا يحترق برأى من الناس وذلك لو كان صحيحاً لكان بدعة ومنكراً اذ أن من شرط المعجزة اظهارها والتحدى بها ومن شرط الكرامة عكس ذلك . فاذا اظهرها خرجت من باب الكرامة . اللهم الا أن تقع ضرورة شرعية لاظهارها . قال : مع أن لدخول النار ادوية تستعمل حتى لا تعدو على من دخلها ممن استعمل تلك الادوية . ومنهم من يظهر الكرامة بامساك الثعابين والانس بها وهذا فيه مافيه من مخالفة الشرع الشريف والتمويه على الامة بمالا حقيقة له اذ ان مثل ذلك يفعله كثير من الناس لمعيشتهم . ومنهم قوم تنزهوا عن هذه الرذائل وعابوا على فاعلها ثم انهم يقعون في اشياء رذلة نهى صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه وهي عندهم كأنها من شعار الولاية فمن ذلك اتخاذ بعضهم الاعلام الى ان قال يجتمعون رجالا وشباناً فاذا أشرفوا على بلد ذكروا الله تعالى جهراً يرفعون بذلك أصواتهم ولا يقصدون به الذكر بل الاعلام فقط لاهل تلك البلدة

ومن قاربها بورود الشيخ والفقرآء الذين معه حتى يخرجوا الى تلقيهم فاذا سمعوا اذكرهم خرجوا اليهم رجالاً و نساء وشباناً واختلطوا بهم قال ثم مع هذه الاحوال الرديئة يرقص بعضهم مع بعض نساء ورجالاً وشباناً ·

ثم قال رحمه الله : ومنهم من يبالغ في أخذ العهد الى حد لا شك في تحريمه فيقول ان المأخوذ عليه العهد لم يبق له تصرف في ماله ولازوجته ولانفسه بل التصرف في ذلك كله للشيخ فان أراد أن يطلق عليه لزمه وان أخذ ماله لزمه الى غير ذلك وهم مع هذه الشروط التي يشترطونها لو تصرف الشيخ في شيءٍ من ذلك لكان سبباً للقطيعة والترك

ومنهم من يأخذ العهد على أن ينتمي لفلان من المشايخ دون غيره حتى كأن عدد الطرق الى الله تعالى على عدد المشايخ فينتسبون اليهم كما ينتسب أهل المذاهب الى مذاهبهم فاذا انتسبوا الى ذلك فالطريق المحمدي أين هو ؟ وحصل بينهم بسبب ماتقدم تعصبات وشنآن كثير حتى صاروا احزاباً ووقع بعضهم في حق غير شيخه الذي ينتمي اليه · والطريق المحمدي غير هذا كله وطريق القوم واحدة وهو الاتباع وترك الابتداع ·

ومنهم من يكلف المأخوذ عليه العهد بان يعترف بين يديه بكل مافعله من الذنوب وفيه مافيه من مخالفة الشرع الشريف انتهى ملخصاً ·

لاتحرك بالملام لسانك على اختيارنا نقل كل هذه الجمل فقد كفانا هذان العالمان العاشقان في علماء الملة ملامة اللائمين لنا على

تصريحنا بالانتقاد على هذه الاعمال الضارة بالاخلاق معاشاً ومعاداً وصرحنا هنا ان هذه الامور مما يفعلها أهل الغرور أو التغرير. وان الاقبح منها اعتقاد الناس انها من لباب الدين. وما ذكرناه كله مشاهد للناس اليوم بل حدثت امور أخرى غنية بشهرتها عن تفصيلها. وسأحصيها بكتاب مبين.

ولعل الذين قرأوا ما حررناه بامعان قد لاح لهم الميزان. وعرفوا كيف يقام الوزن. وكيف يظهر الفرق. والوصية الجامعة التي اختم بها المقال. واودع فيها المجال. هي ان لا يغتر بكل من ادعى التصوف وتظاهر بالصلاح لانه ان كان صادقاً فلنفسه ولكن الصدق يمنع من الدعوى والتحدي ولا يضر تكذيب مدعي الصلاح والا كان صادقاً اذ قد كفانا القرآن وسيرة النبي ومن عمل صالحاً فلنفسه ولكن تصديقه يضر اذا كان كاذباً « ومن الناس من يعجبك قوله في الحيوة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد

(لاحقة)

الغزالي من اساطين هذا العلم وغيره من العلوم المنسوبة للدين فلعل الذين يروننا مؤمنين بفضله يقولون ما بالك تنكر التصوف وامام كبير كالغزالي يثبته وجوابي عن هذا على وجهين الاول على سبيل الاحتجاج والمدافعة فنقول اولا القاعدة المسلمة ان الحق لا يعرف بالرجال. وثانياً الغزالي ما اثبته الا ليهذبه اذ لم يجد سبيلا في تعليمهم

احسن من هذا وقد فعل رحمه الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون .
أما انا وامثالي فيجدر بنا ان نجهر بالحقيقة التي لم تغن عنها المداراة وهي ان علم التصوف علم ملفق من كلام فلاسفة الملل الاول وشيء مماثل له من متن الدين . وان المتصوفين اكثرهم اما من الذين استحبوا البطالة واخترعوا اساليب ليعيشوا بها بل ليفوزوا فيها باطيب المطاعم والمناكح واما من الذين فسد مزاجهم فغيروا نعمة الله التي آتاهم وعاكسوا سنن الوجود وأن الكمال الانساني ليس بالتقشف والفرار من الخلق بل بالوقوف عند الحدود والعدل في الحقوق والاحسان للمخلوق . والحقوق لها حدود ومعرفتها واجبة والعلوم المتكفلة بها موجودة . هذا قوام الامر وملاك النصيحة .

والوجه الثاني على سبيل المجاراة فنقول للمعترض اذا اعترفت أنت بفضل الغزالي كما اعترفت انا فالامر سهل اذا وافقناه في الاكثر وخالفناه في الاقل وان لم تعترف فلم نفسك قبل لومي . نعم انا اوافق هذا الامام في الاكثر واستشهد من كلامه فيما اوافقه فيه . وليت الذين لا يجدون بداً عن التصوف يرجعون الى كتابه الاحياء . وقد حسن الآن ان آتيك بنبذة منه على شطح الصوفية . قال لله دره :

وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية (أحدهما) الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغني عن الاعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم الى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب فيقولون قيل لنا كذا

وقالنا كذا ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لاجل اطلاقه كلمات من هذا الجنس ويستشهدون بقوله « انا الحق » وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي انه قال « سبحاني سبحاني » وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم واظهروا مثل هذه الدعاوي فان هذا الكلام يستلذه الطبع اذ فيه البطالة من الاعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والاحوال فلا تعجز الاغبياء عن دعوى ذلك لانفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ومهما انكر ذلك عليهم لم يعجزوا عن ان يقولوا هذا انكار مصدره العلم والجدل والعلم حجاب والجدل عمل النفس . وهذا الحديث لا يلوح الا من الباطن بمكاشفة نور الحق . فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره . وعظم في العوام ضرره . حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من أحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصاح عنه مايحكى وان سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه كما لو سمع وهو يقول «انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني » فانه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك الا على سبيل الحكاية .

(الصنف الثاني) من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل وذلك اما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل اصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة احاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الاكثر .

أن تكون مفهومة له ولكنه لايقـدر على تفهيمها وايرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالالفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام الا انه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الاذهان أويحمل على أن يفهم منها معاني ما اريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه وقد قال صلى الله عليه وسلم «ماحدث أحدكم قوماً بحديث لايفقهون الا كان فتنة عليهم» وقال صلى الله عليه وسلم «كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ماينكرون · أتريدون أن يكذب الله ورسوله وهذا فيما يفهمه صاحبه ولايبلغه عقل المستمع فكيف فيما لايفهمه قائله فان كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره · (وأما الطامات) فيدخلها ما ذكرناه في الشطح وأمر آخر يخصها وهو صرف الفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة الى أمور باطنة لايسبق منها الى الافهام فائدة كدأب الباطنية في التأويلات · فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم فان الالفاظ اذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو اليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالالفاظ وسقطت به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فان مايسبق منه الى الفهم لايوثق به والباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر وانما قصد أصحابها الاغراب لان النفوس مائلة الى الغريب ومستلذة

له وبهذا الطريق توصل الباطنية الى هدم جميع
ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب
المصنف في الرد على الباطنية ومثال تأويل أهل الطامات قول
في تأويل قوله تعالى « اذهب الى فرعون انه طغى » انه اشارة الى
قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغي على كل انسان وفي قوله
تعالى « وأن الق عصاك » أي كل مايتوكأ عليه ويعتمده مما سوى
الله عز وجل فينبغي أن يلقيه . وفي قوله صلى الله عليه وسلم تسحروا
فان في السحور بركة أراد به الاستغفار في الاسحار . وأمثال ذلك
حتى يحرفون القرآن من أوله الى آخره عن ظاهره وعن تفسيره
المنقول عن ابن عباس وغيره من العلماء . وبعض هذه التأويلات
يعلم بطلانها قطعاً كتنزيل فرعون على القلب فان فرعون شخص
محسوس تواتر الينا النقل بوجوده ودعوة موسى له وكأبي جهل وأبي
لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم
يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل الى ألفاظه وكذلك حمل السحور
على الاستغفار فانه كان (ص) يتناول الطعام ويقول تسحروا وهذه
أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها قطعاً . وبعضها يعلم بغالب الظن
وذلك في أمور لا يتعلق بها الاحساس فكل ذلك حرام وضلالة
وافساد للدين على الخلق .

انتهى ما أردت ايراده من كلامه وبه انتهى ما أردت تحريره في
هذه الرسالة

١٣٣٣/١

محال البيع

تباع هذه الرسالة في ادارة جريدة الرائد المصري
ومكتبة الترقي لصاحبها محمد علي افندي كامل بشارع عبد العزيز
بمصر وفي مكتبة عمر افندي هاشم الكتبي بالقرب من جامع
الازهر وفي مكتبة محمد افندي هاشم الكتبي بدمشق بجوار
الجامع الأموي وثمنها قرش واحد صاغ ويسقط كثيراً لمن
أخذ منها عشرات من النسخ ٠